ايهاب مصطفى

مع اسمها زينب

قصص

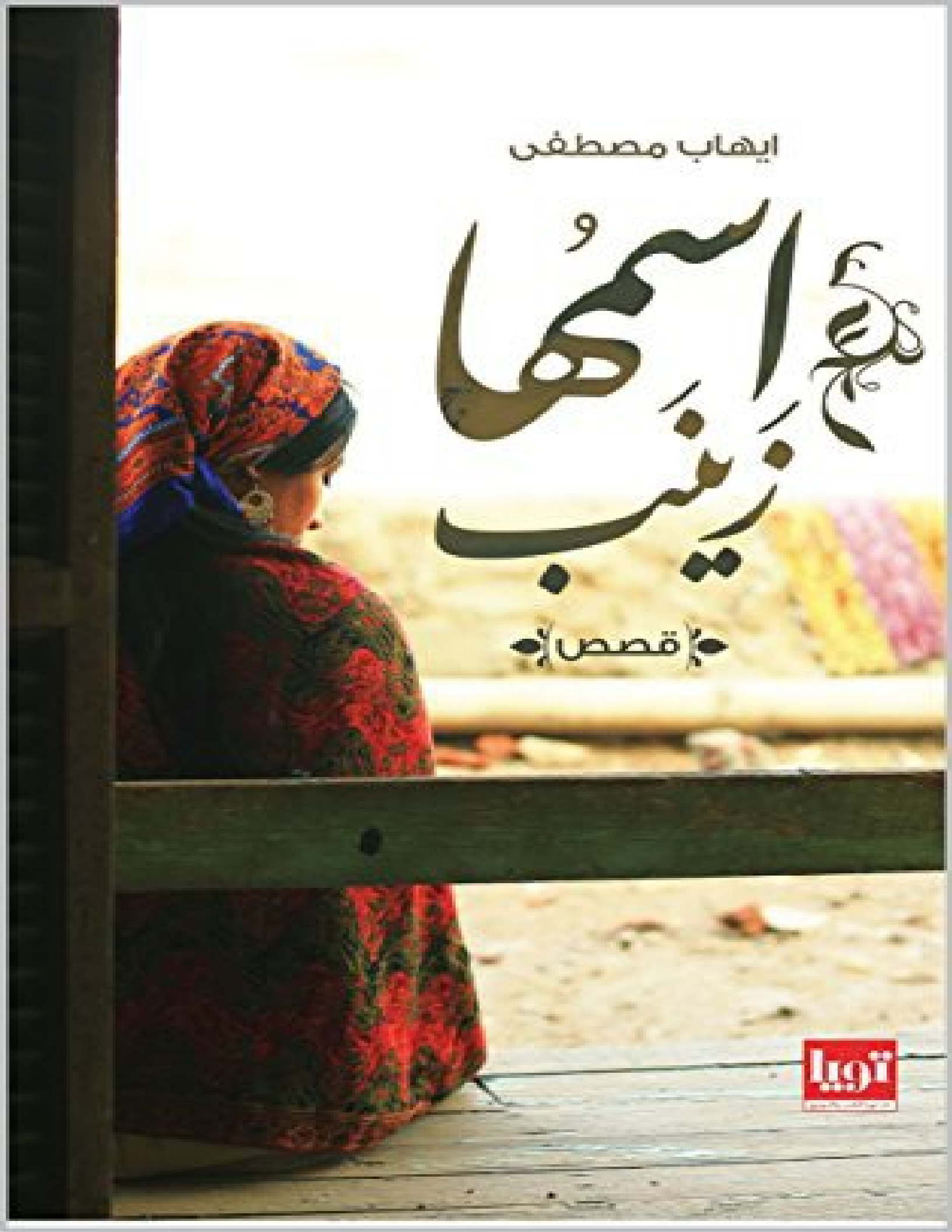

تنويا

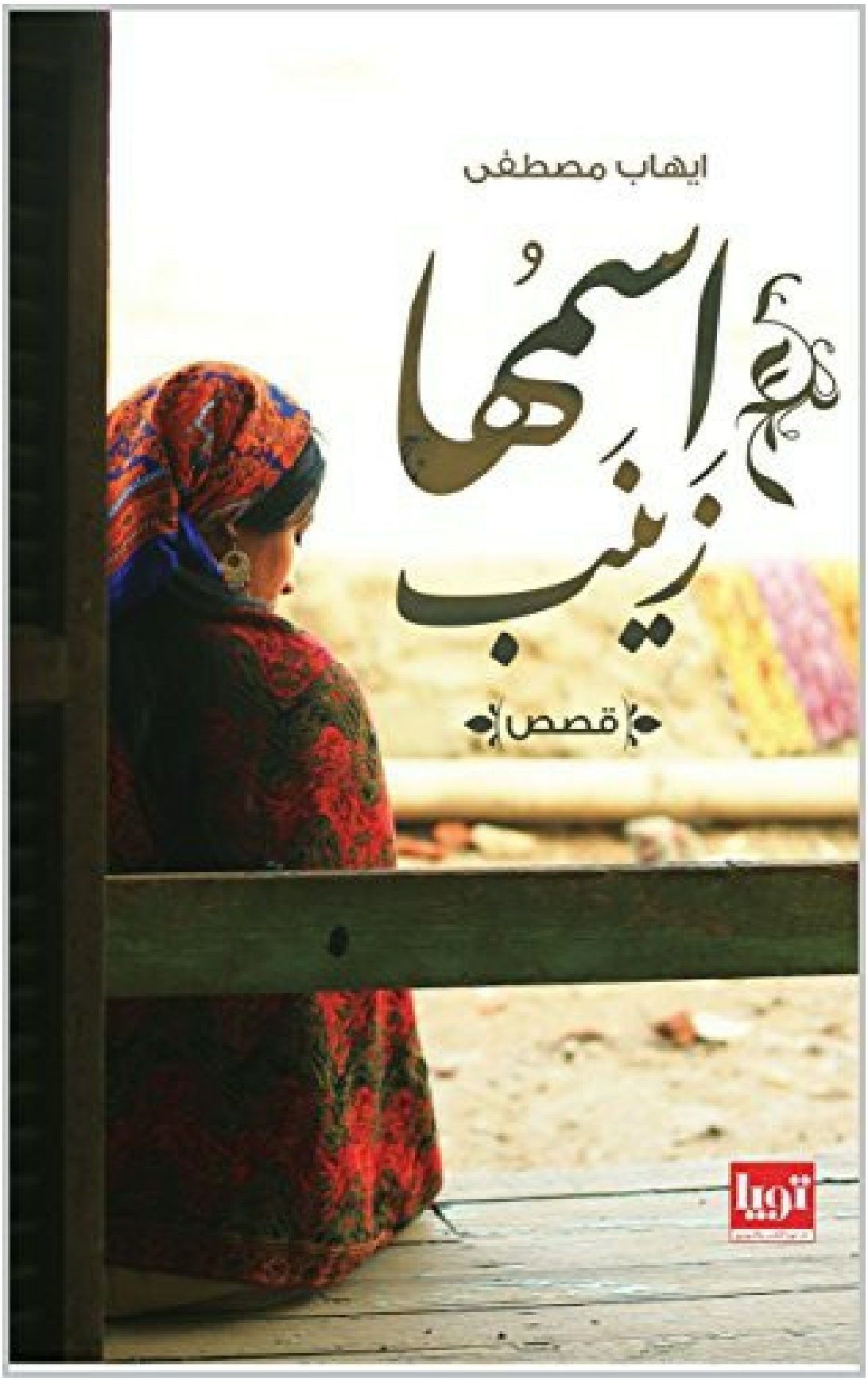

ايهاب مصطفى
اسمها زينب
قصص

اسْمُهَا.. زَيْنَب

إِيهَاب مُصْطَفَى

القمرُ في نجعِنا يصعدُ من وِراء الجبلِ.. ويُقالُ إنه في مرةٍ من المراتِ اصطدم بالجبلِ.. القمرُ أصبحَ هلالًا.. ونحن أصبحَ لدينا زَينب..

القِسْمُ الأوَّلُ
زَيْنَب

مَكَانٌ مُهَيَّأٌ لِقَلَقٍ قَادِمٍ..

سأقولُ لك كيف بدأ الأمرُ يا خال، كان طريقُ الرجوعِ من الخورِ قاسيًا، كأنه يطولُ كلما اقتربت، الدنيا ليلٌ قاسٍ على البدنِ، ظلمةٌ مُتكاثفةٌ تُطوقني بقبضةٍ موجعةٍ، تنخرُ في روحيَ وتُرتب مكانًا جيدًا تمهيدًا لقلقٍ قادمٍ، فرحت جدًّا وقت أنْ لاحَ النورُ، خفت أن يكونَ سرابًا، أو أنَّ بُؤبؤَ عينيَّ تمكن من خداعِي وهيَّأ لي بهجةً غير موجودةٍ لإدراكهِ احتياجي العظيم، لكنها لم تكن سرابًا، دخلت إلى نجعِنا أجرُّ قدميَّ، كانت البنتُ تجلسُ على المصطبةِ تحت النورِ الشحيحِ، رأتني قادمًا ودخلتُ إلى بيتهم بسرعةٍ، رجعتْ تحملُ كوبًا من الماءِ، شربتُ خفيفًا وشكرتُها، شدتني برقةٍ، أجلستنِي ورأيتُ وجهَها، البعوضُ يحومُ حول اللمبةِ المعلقةِ على العمودِ الحديدي، يُرسلُ ظلالًا متطايرةً إلى وجهِها، البنتُ أرسلت إلى عينيَّ بسمةً ما رأيتُ مثلها يا خال، لها شَعرٌ لا تقدر على فصلهِ من الليل الأم، ربما تشك أن السماء كلها رأسُها، لها حاجبان يبدآن بعنفوانٍ، وينحفان ثم يختفيان عند آخر حرةٍ لمرود الكحل في عينيْها، خدَّاها متوردان مثل رغيفيْن شمسييْن يفصلُ تلاقيهما أنفٌ ينزل على مهلٍ وبحياديةٍ تامةٍ، شفتاها دمٌ يحبسه جلدٌ رقيقٌ، كنت أعرف زينب، وكثيرًا ما تكلمتُ معها، لكن نظرتها كانت غريبةً جدًّا، كانت تخترقني وتقلبُ دواخلي رغمًا عني، أوراقي تتكشفُ تمامًا قدامها، كأنها كانت جديدةً تمامًا، مخلوقة للتو أراها لأول مرةٍ، وبعد أن ارتحت

من وجعي قلتُ لها نكتةَ، ضحكت بقوةٍ بصوتٍ يحملُ في طياته فرحةَ، كنت أقول لها النكتة، تضحكُ فأفكر في نكتةٍ أخرى بسرعةٍ كي لا يقفَ خيطُ الضحك، لكن ذاكرتي لعوبٌ، لا تستشيرني فيما أحب ولا أحب، تفرض على أشياء لا أحتاج لها ولن تضحك لها زينب، قلْ لي مثلًا، لماذا أتذكر يوم كاد حمدي أن يغرق، ولماذا أتذكر يوم أنْ اندلقَ عجينُ الأم على الأرض، هل هذه أشياء تضحك لها زينب!! وفرغت ضحكات زينب، وتثاءبت، لماذا حكم علينا بالنوم كل يوم يا خال؟ قلتُ لنفسي أكان لزامًا عليها التثاؤب، ووقفت أتعرَّق حرجًا، وقفت ونظرت إليَّ ودخلت إلى بيتها بصمتٍ هادئ ورزين، مشيت أجرُّ قدميَّ، وتذكرت العديد من النكات التي كان يمكن أن تضحك لها زينب، وحزنت جدًّا، كان يمكن لتلك الجلسة أن تطولَ، وكان يمكن لضحكات زينب أن تستمرَّ حتى تستيقظَ العصافير وتغني للعالم، وفي الطريق راحت زينب تملؤني، استباحتني تمامًا، دخلت إلى بيتي، صدقني يا خال، كنتُ جائعًا مثل كل مرةٍ أرجعُ جائعًا ومنهكًا، ومثل كل مرةٍ سآكلُ بقوةٍ كأنما سيفرغُ الطعامُ من العالم، وضعت الأطباق ومددتُ يدًا مرتعشةً، ورحتُ ألوكُ قطعة العيش وأقلبها في فمي، وعندما حاولتُ ابتلاعها لم أقدر، ما الذي حدث لي وقتها؟ لا أعرف ولماذا أكاد أتقيأ كلما حاولت ابتلاع لقمة؟ هل جربت أن تقلب الطعام بالماء في فمك كي تستطيع البلع؟ هذا ما حصل، وقمتُ والرغيفُ الشمسي أمدَّ الله في عمره ليومٍ جديدٍ، وفي حجرتي راحت ضحكاتها تخترقني، أنت لن تُصدق حين أقولُ لك إن صورها راحتْ تتبعثرُ وتتسلق الحوائط، وتتقافز على سرير نومي، راقبت البنات وهن يستبحن فراغَ غرفتي على مهلٍ، يخرجن ألسنتهن ويضحكن، كلهن زينب، وراحت تلك الغصَّة تتصاعدُ وتطمئن في حلقي، ولأول مرةٍ أقدر على عدِّ ضربات قلبي، لا، لم يكن يدقُّ، كان يرجُّني رجًّا، ولا أعرف السبب، هل أحببتُ زينب؟ لا أعرف، لكني أعرف تمامًا أنك حين تُحب فإن الأمر يدخلك بهدوءٍ وروية بغير علمك، يبعثر رؤاك ويمنحك عينًا زائغةً وشفاهًا مرتعشةً، ورعدةً تسري مثل خدَرٍ لذيذٍ، لا تشعر إلا وأنك مُحتلٌّ، والأنكى أنك تُهيئ لمحتلك الأماكن كضيفٍ مُرحَّبٍ به، البنت لم تتركني، حين حاولتُ النوم وجدتها دخلت ما بين وسادتي ورأسي، قمتُ مراتٍ لأجدها ما زالت تمرحُ في فضاء غرفتي، أخرج فتخرج ورائي وتحاوطني من جميع الجهات مثل فقاعةٍ احتوتني، وبكيتُ يا خال، أنا لم أكن مهيئًا لحمل هذا الأمر، وجلستُ على عتبة داري أراقب الليل المعاند، وجاء الصبحُ بطيئًا كولادة طفلٍ لأم عجوزٍ، النهارُ راح يجلو كل شيءٍ من حولي، وخرجتِ الأبقار تجرُّ أصحابها أو يجرُّها أصحابها لا أعرف، وانتظرت حتى صبَّت الشمسُ حرارتها لتضربَ ظهر العالم بقسوةٍ، دَخَلت بيتي وفكرت كثيرًا، نويت ألا أذهب لزينب، وعكست اتجاهي وما طاوعتني قدماي، حاولتُ السيرَ وما قدرت،

ووجدتني منسافًا وراء قدمي، تمشي بحسب رؤيتها لا رؤيتي، كأنما هي من تملك زمام أمري، قدماي كانتا ضد إرادتي، ووجدتني مرغمًا على السير حتى باب زينب، ووجدتُ الكثير من زينب يتبعني إلى الأصل، يتقافزن من حولي فرحين برؤيتهن الجسد الأم، كيف أخبط على بابهم وماذا سأقول لهم، فكرتُ كثيرًا في كلامٍ يليقُ بالوقوف مبكرًا على بابهم، حتى الحروف كانت تتبدل، أشد الحرف إلى الحرف فيشد أخاه ويُبدلان مكانيْهما، يدي أيضًا كأنما لها عقلٌ خاص بها، لم تنتظر رؤيتي أو تستشيرني، راحت تنتهك المسافاتِ إلى البابِ، وقبل أن تخبط ترجع بقلقٍ، مراتٍ كثيرةً راحت ورجعت، ومراتٍ كثيرةً والقلق يلفني كأم رؤوم، وفي الأخير لامست بابهم بصوتٍ لم أسمعه أنا، لكن يدي تشجعت وطرقت بصوتٍ أعلى، ولم أنتظر كثيرًا وسمعت صوت الشبشب يجرُّ قدمَ صاحبه إلى الباب، سيكون أخاها أو أباها، ماذا سأقول له، يمكنني أن أقول له إنني نسيتُ الساعة على المصطبة، لكنهم يعلمون أن علاقتي بالوقت معدومةٌ، وأن المآذن تتكفلُ بمعرفتنا للنهار ومدى قوة الشمس فيه، وارتبكت حين سمعت صوت الترباس الداخلي ينشدُ بحركةٍ سريعةٍ، ودخلني صوتُ دوران قائم الباب، وجاءني وجهُها، هي زينب، وكأنها لم تندهشْ، هل قالت صباح الخير، شفتاها ثابتتان لكني أقسم أني سمعت صباح الخير، ولم أرد، لكني أقسم أنها سمعت الرد، إيماءتها أوحت لي بذلك، كانت المساحةُ المبسوطةُ بيننا مليئةً بأنفاسٍ حارةٍ وقلقٍ، لم تحتوِ على حرفٍ واحدٍ لكنها كانت مليئةً بالكلام، عيناها حمراوانِ مثل جمرةٍ في طريقها للخبو، فَتَحَت الباب أكثر فوجدتني أخرج من بابهم، لم أكن واحدًا، كثيرٌ من أشباهي كانوا يخرجون، وهي تنظر إليهم بقلقٍ، ونظرتُ إلى الأعلى ووجدت كل شبيهٍ من أشباهي يمسك بشبيهٍ من أشباههم ويتطايرون في اتجاهاتٍ مختلفةٍ.

اسْمُهَا، زَيْنَب

كانت البنتُ تُقلقني، تأتيني في مناماتِي وتُخايلني، وأصدقائي نصحوني بالذهابِ إلى الجدة "روحية"، لم أكن مقتنعًا بما تقوله الجدةُ للناس، لكني في النهاية قلتُ لن أخسرَ شيئًا، سأذهبُ إليها وستقرأ لي كفي، وستمنحني أملا– حتى وإن كان باهتًا- أن أكونَ زوجًا لزينب، أعرفُ أن الجدةَ تجلسُ دائمًا تحت النخلة القديمة قِدَم المكان، تُخرج من جيبِها بعض النَّوى وتظل تخلطه بين يديْها، ترميه بعشوائيةٍ وتُدقق وهي تمسك ذقنها، تُمصمص شفتيْها تأسيًا لحال أحدهم القادم، وتفرح أحيانًا لحال أحدهم الآخر، وكانت– أحيانا- تمسك بكف اليد، تنظر إلى الفرح الراكد في المسامات الجلديةِ حتى آخر الكفّ، وتبصر الحزن الذي عشَّش في المنحنيات، تُحاول تتبع الشقاء، وترصدُ بعض البهجات القادمة، الجدة روحية لها ابتسامةٌ عذبةٌ، ولها أخاديد وشقوق غائرةٌ حفرت لنفسها مكانًا أبديًّا في ملامح وجهها، لها يدٌ معروقةٌ امتلأت بثعابين خضراء غير مرنةٍ، لها خطان خضراوان يمسكان بشفتها السفلى ويشتبكان بذقنها، قرطها ترك الأذن بعد أن صنع في شحمتِها فراغًا دائريًّا تلاحظه العين، خصلاتُ شَعرها المدهونةُ بالحنَّاء تبرز مثل متسللين صغارٍ من تحت طرحتها، كنتُ أعرف أن الجدة غير ماهرةٍ بقراءة مستقبلنا، والكثير منا يمنحها كفه ويجلس قدامها وهي تخلطُ النوى أملًا في بهجتها فقط، يُحاولون إقناعَها أن صنعتها مطلوبةٌ، وأن الأخطاء الصغيرة لا تنفي أن الأساسَ صادقٌ كبيرٌ، وهم محتاجون لها، أما اليائسُ مثلي فهو كالمتعلقِ بقشةٍ، لكني حين وصلتُ لم أجد الجدة، وابتسمتُ حين خَرَجَت من بيتها القديم، كل ما حول جدتنا يُماثلها في القدم، كانت تُمسك بعصى مفرودةٍ تُحاول أن تفرد عليها عودها الذي حناه الزمن، كأنها تشكو لها وجعَ الأيام، راحت تمشي بخطى سريعةٍ لها، بطيئةٍ جدًّا لي، جَلَسَت على العُشب الأخضر وسندت ظهرها إلى جذعِ النخلة، أخرجت نوى البلح من جيبها وراحت تخلطه جيدًا، كأنها تُغريني على قراءة أيامي القادمة، رمت النوى فتشكل على مساحةٍ قريبةٍ، اقتربت منها ومددت يدي ونحيت نواها جانبًا، انزعجت قليلًا وحين فردت راحة يدي رجعت بسمتها، حاولت مدَّ رسل نظرها الكليل، شدت يدي فطاوعتها، راحت تدقق النظر وتضيق عينيْها الضيقتين، أخذت تنقر بسبابتها على راحة اليد، بدأ قلبي يلهج، ستقول أي شيء من شأنه أن يُريح قلبي تجاه البنت زينب، ستقول إني زوجها مستقبلا، سترسم لي خَطا جميلًا من بهجةٍ، أمشي عليه فأفرح، شدت يدي مرةً أخرى وراحت تُدقق، وأنا الذي حاولت كتم الوجع قلت يا رب، ارم زينب في طريق عينيْها، اجعلها ترى أن زينب لي، وأن هذا العالم سيفرحُ لنا، تلك النخلة التي تجلسُ تحتها الجدةُ ستفرحُ لنا، وتلك الشجرةُ التي أرويها كل يومٍ ستفرحُ لنا أيضًا، وهذا

الطائرُ الذي يُخايلني بجناحيْه سيهبطَ على كتفي ويرمي بكلماتٍ مبهجةٍ في أذني، الطريقُ وصخورُ الجبل، والطوب الأخضر الذي يتكوم فوق بعضه ليشكلَ جدران بيوتنا، يا ربي كل شيء سيفرح، سترفع رأسها الآن وعيناها مملوءتان بالفرحة، وستسقط دمعتها مثل كل مرةٍ تقرأ فيها الكف لتخبرني أن هناك طريقًا طويلًا في كفي، وأن زينب تتوسط الطريق فاتحةً ذراعيْها، أنا لم أنتظر حركة لسانِها، ووجدتني أصغر وأصغر، كنت هناك، أجري على كف يدي، وأحاول عدم الوقوع في ذلك الأخدود الكبير والممتد إلى ما لا نهاية، صحراءُ كبيرةٌ جدًّا تُحيطني وتلفني بقسوةِ جلدها الأصفر، نظرتُ إلى الأعلى، وجدت هاتيْنِ العينيْنِ الكبيرتيْنِ للجدة مثل شمسيْن بدا نورهما في الخبوتِ ممهدًا الطريقَ لليلٍ قادمٍ، جريت وأنا أرسل عيني في مهمةٍ شاقةٍ للبحث عن زينب، فجأة انفتح العالمُ كله لي، وجدتني وأنا في بيتنا القديم وصراخ طفل يُشبهني يظهر للعالم، تركتني ومشيتُ فوجدتني كبرت، كنتُ أمشي وراء البقرة المربوطة في الساقية، تلف وتدور فيخرجَ الماء، تنتعشُ الذرة وتفرد شواشيها للعالم في بهجةٍ، أعوادُها تنتصبُ مثل أعمدةٍ قويةٍ لكنها مرنةٌ، مشيتُ ووجدتني جالسًا تحت حائطنا أبكي وأمي تصرخُ أني كنت أسبح بالترعة، كنت أبكي بقسوةٍ، والعيال ينظرون لي بحزنٍ، مشيتُ ورأيتني وأنا أشربُ السجائر في الغرزة مع الصبية، كنتُ مدسوسًا في وسطهمِ خائفًا من أبي، كان القلقُ يتسللُ إلى مسامّ جسمي ويشد العرقَ الكثيرَ إلى الخارج، جريتُ أكثر، أين زينب؟ لا بد أنها هنا في مكانٍ ما، لكن يدي واسعةٌ جدًّا، وأنا الصغير لا أقدر على جري كل تلك المسافات، مشيتُ ووجدتني أمسكُ بفأسٍ وأزرع في أرضٍ، هل هي أرضي؟ أنا لا أملكُ أرضًا، لمن أزرع إذن؟ تقدمت أكثر فوجدتني في بيتٍ مملوءٍ بالألوان، أنا لا أملك بيتًا مُلونًا، ولا أملك جدرانًا عليها كفوفٌ كثيرةٌ من الحِناء، كل العالم كان يتغيرُ وأنا أمشي، ووجدتها، كانت زينب، جريتُ بقوةٍ لأحتضنَها، لكنها كانت تلبسُ الأبيض، لها طرحةٌ بيضاء تتهادى من رأسها وتمسُّ الأرضَ، المفروض أن أظهر الآن، لا ريب أني زوجها، سأمسكُ يدها ونمشي في يدي، سنمرُّ بجوار ذلك الخندق الكبير والذي يُماثل عمري، بنهايته سأراني وأنا أشيخُ وهي معي تُهدهدني مثل طفل، ستُقبلني في جبهتي، مشت زينب ومشيت وراءها، وكان هناك رجلٌ يلبسُ جلبابًا زاهيًا وعمامةً لها ذؤابة يطوحها الهواء، يلبس بما يليق بعريسٍ، كان يمنحني ظهره، لم تكن كتفاي عريضتيْن مثل كتفيه، لكني رأيتني وأنا أعملُ في الحقل، لا ريب أنه أنا، لا ريب أن هذا العمل أورثني جسدًا قويًّا بذراعٍ مفتولةٍ وجسدٍ ممشوقٍ وكتفيْن عريضيْن، ومن منا يظل على قديم حاله!، وحين استدار صاحبُ الجلباب الأبيض وجدته ليس أنا، لم يكن يُشبهني، كيف لا يُشبهني

وتكون زينب مبتهجةَ، ربما هو أنا، ربما سيتغير شكلي في المستقبل القريب وأشبهه، يا رب إجعله أنا، لا بد أنه أنا، السنين تكفي تمامًا لتغيرنا، تمنحنا جلدًا قويًّا ومشدودًا، تمرُّ الأيامُ وتسحب عصارة الوجه، وتترك لنا أديمًا قاسيًا، تسحب قوتنا وتتركنا مثل بيتٍ هشّ، نعم، السنين كافيةٌ لتغيرني، لكني وقفت تمامًا، وقفت حين رأيتني وأنا أتقدم من زينب والرجل، كنتُ أشبهني تمامًا والحسرة تُطل من ملامحي، يا إلهي هل لاحظتْ زينب تلك الدمعة في عينيّ، لكني ميزتها تمامًا وهي تسقط ببطءٍ صوْب الأرض، أنا الذي هناك كنتُ أبكي بقسوةٍ، والتفتُّ ورأيتُ العينيْن العملاقتيْن للجدة روحية ترمقانني بوجعٍ، ورأيت ذلك الشلال الكبير من مياهٍ، كانت عيناها تدمعان، ورأيتُ الدمعات تسقطُ على راحة يدي، تتجه نحوي بقوةٍ وتحصدني أنا وأنا الآخر وزينب وعريسها..

صَبَاحٌ يَنْتَهِي بَاكِرًا

استيقظتُ على أذان الفجر، كان المؤذنُ يُرقق في تنغيمة الصوت،

يأتيني رهيفًا وجميلًا، أمسكتُ بالكوزِ الصفيحِ المخصص للوضوء، ملأته من الصنبور، توضَّأتُ ومنحتُ نفسي للشارع، وجدتُ معظمَ رجال وشباب النجع في المسجدِ، صلينا، وحين خرجت وجدت من يُناديني، التفت فوجدته أبا زينب، قال لي إنه يحتاجني لصنع الدرابيس للأرض لفصل الماء، سيمسك باللوح بينما أمسكُ أنا بالدواسة، أضغط بقوةٍ فيجر الثرى ليكومه في خطوطٍ عاليةٍ؛ لتحجزَ الماء، كنت أكرَه الدواسة لأنها مُتعبة جدًّا، وحين أردت الرفضَ وجدته يقول لي: "لا تُحضر طعامًا معك، ستأتي زينب إلينا بالطعام"، وقفتُ مبهوتًا، ورددتُ بيني وبين نفسي، زينب، زينب، وافقتُ على الفور وقلتُ له: "سأتجهز وأنتظرك يا عم"، مشيتُ، تذكرتُ أني نسيتُ أنْ أسأله كم سيمنحني أجرًا!، لكن لا يهم، أكملتُ سيري والفرحة تنغرز بقوةٍ في مساماتِ جلدي، أبا زينب لا يعرفُ أني أحب زينب، الحقيقة كلنا في النجع نُحب زينب، لكن السؤال الذي كان يُقلقنا، من الذي سوف تكون له زينب؟ مَن الذي فكت أمُّه ضفائر شَعرها ومنحته دعوةً قبلتها السماء؟ مَن المكتوبُ له السعد في دنياه؟ أعرفُ بيتهم، وأعرفُ أنَها تُشبه بياض الصبح، أو أن بياض الصبح يُشبهها، أحيانًا كنتُ أتلصص، أمنحُ نفسي لعتمة الليل، والليلُ سَتَّار، أختبئ خلف الصخور التي رماها قدرُها السعيد أمام بيت زينب، أراقب باب بيتهم المرسوم عليه "الخمسة وخميسة"، لكن البنت لا تخرج، هي لا تفعل مثل باقي البنات، ليست لها مواعيد مضبوطة نترقبها فيها، الفشل يقابلني دائمًا مثل صديقٍ مزعج، أقول: "يا الله لماذا لا تفعل زينب مثل بناتنا، لماذا لا تخرج يوميًّا إلى الزرع وتحملُ لأبيها المشَّ وفجليْ البصل!"، أعرفُ أنها تخرجُ ولكن ليس يوميًّا مثل باقي البنات، أعرفُ أيضًا أن النجع كله ينتظر طلوعها، شبابُ النجع كانوا يتفننون في وصف خروجها، أحدهم قال: "أنا لا أراقب بيت زينب مثلكم، لأنها حين تخرج ستتوه الشمس عنا وربما تمنحنا العطر المخلوط بالنور بديلًا عن أشعتها الحامية"، وأحدهم قال: "إن القمر يخجلُ من البنت، وأنها لو خرجت ليلًا فربما ينزلُ إلى الأرض ويمشي معها"، أنا أصدقهم، أنا رأيت كل ذلك بأمِّ عيني، الطبيعة كلها تحبها، اقتربت من بيتي، الصبح يتعارك مع الظَلمة فيجد لنفسه براحًا يتمدد فيه، الأعمدة ما زالت تسقط النور الشحيح، الناموس يلعب بحريةٍ في فضاءاتِ النور، لا صوت إلا لحركة قدمي وبعض الناس الذين يدفسون أنفسهم في مجال رؤيتي؛ فأشعر بوقع حركاتهم، نسمات الصبح تهل فأستلذ ببرودتها الخفيفة في جسدي، أذكر يوم ذهبت إلى الترعة، كان يومًا من الأيام التي طلعت فيها زينب، وراحت إلى أبيها في الأرض، وقتها كان لدينا اعتقادٌ خاطئ أنه لا توجد أسماكٌ، الترعة لها سطحٌ أملس، لا يُعكر صفوه فقاعات تنفجر لتثيرَ مويجاتٍ صغيرةً تنبئ عن وجود أسماك، كنا نمنح الصنارة دودةً كاملةً، لكن السمك كان

يتمنعٌ عن الإغواء، تظل قطعة البوص الممسكة بالخيط طافية بهدوءٍ، حتى أننا كنا نعتقد أنها في سباتٍ ممطوطٍ، لذلك كنا نتجاهلُ النظر كثيرًا إلى الصنانير، كأن الأمرَ لا يهمنا، نقلب قطع الملل بين أضراسِنا، ونمد إلى بعضنا أطباقًا مليئةً بالصبر، كنا نخترع الحكايات، وكانت الفرصُ سانحةً للتجديد في الحكايات نفسِها، لكننا عرفنا أن الترعة كانت تخدعنا، جاءت زينب تمشي بعقلٍ راجحٍ لا تتمايل كما الأنثى، ولاحظت ذلك التبدل الذي حصل في جسم الطبيعة، الأسماك طلعت تتقافزٍ وتتسابق مسايرةً لخطوة البنت، شباب النجع وجدوها فرصةً سانحةً للانتقام للساعات التي منحتنا الكثير من الخيبات، وقفت البنت بجواري ومنحت الترعة نظرةً واحدةً، وجدت الأسماك على الحافة تشخص ببصرها ناحيتها، وحين أكملت البنت مرورها وجدت الأشجار وهي تلف ناحيتها، وقف أبو قردان غير منتبهٍ للدود، حتى الرجل الذي يقطع البلح، كان يلف وسطه بحبل الليف القوي ويضرب سباطات البلح فتسقط منه على الأرض، لكنه أكمل ضربه بدون أن يُدرك فقطع الجريد..

الشيخ صالح الأعمى وغيره يقولون إن نجعنا مبارك، كل حين يمنحنا قطعة لحم وضاءة، الشيخ ذكر أدلةً دامغةً على قوله، الأولياء أحاطوا النجع بتراتيلهم، لذلك يكرمنا الله ببنت تكون سببًا في بهجتنا، ويا حظه من فاز بها، في البدء منحنا فاطمة، وبعدها جاءت زينب، كانت تمرُّ على الناس حين تخرج لأمرٍ عابر يستلزم خروجها، تتوقف الأيدي التي تقلب الدومينو، تتوقف الأقدام التي تنتهك حرمة صمت الطرقات، تتركز الأعين وتنشلُّ الألسنة إلا من كلمتين: سبحان الله؛ وحين تُكمل مرورها كانت التنهيدات تصنع جوًّا حارًّا من فوقنا، هي الوحيدة–زينب- التي كذَّبت مقولة أن الجمال نسْبي، ويختلف باختلاف الرائي، كلنا نراها جميلةً، الشيخ صالح كان يصفها لنا حقًّا، يصف حركة مرورها وسكنتها، يصف الغبار الذي يحبها ويلتف حول قدميْها في غيرٍ وجودٍ للريح، يصف الأشجار التي تلين تمامًا فتجدها الثمار فرصةً للنزولٍ، يصفُ عبَّاد الشمس حين يترك الشمس الأم ويميل بوجهه متتبعًا خطوتها، أندهشُ وأذكره أنه أعمى، يضحك الشيخ صالح بقوةٍ، ويقول: "أنا لستُ بأعمى، لكنكم لا تملكون زينب في دواخلكم، لذلك أنتم الذين لا توجدون في مرمى رؤيتي"، وكثيرون في النجع خلقوا حولها هالةً من الأساطير، لكننا كنا نصدقها تمامًا.

وصلتُ إلى بيتي، فتحتُ الباب وألقمتُ الكانون بعضًا من الحطب، وضعت الكنكة على حديدتين متجاورتين متكئتين على قالبين من الطوب، وألقمتها الشاي والسكر، وضعت فيها عودَ ثقابٍ مقطوعَ الرأس ليلم دخان الحطب المحروق فلا يتأثر الشاي ولا يتغير طعمه،

أذكر تلك المرأة التي كانت تريد الولد، تعبت من السير في طرقٍ مليئةٍ بالعرَّافات والشيوخ والقديسين، المرأة يئست تمامًا وعلمت أن بطنها غير قادرٍ على صنع العيال، وتدويرهم في مصنع الرحم، يقال إن المرأة ذهبت إلى أم زينب لتساعدها في تنقية القمح من الشوائب، وحين سألتها أم زينب عن مسيرتها مع الشيوخ، قصَّت عليها ما كان، ويُقال إن زينب خرجت ومسَّدت على بطن المرأة، وبعدها بشهرين طار الخبرُ المليء بالفرحة، الكثير قالوا إنها ولية من أولياء الله، والكثير قالوا الأساطير في ولادتها، أنزلت الكنكة وأحضرت بعضًا من قطع العيش "الفايش" وصببت كوبًا من الشاي الذي يضبط الدماغ.

كان ذلك في وقفة عيد الأضحى، قيل إن نورًا سرى فجأةً، النجع كله رأى النور، أبي نفسُه قصَّ عليَّ ما حدث، قال إنه ليس الوحيد الذي قام ولبس على عجلٍ وخرج مسرعًا وحين نظر إلى ساعته وجدها الثانية صباحًا، تعجَّب وقال يا ربي من أين هذا النهار؟!!، شيخ المسجد كبَّر لصلاة العيد في الثانية صباحًا وحين نظر إلى ساعة المسجد توقف وقال للناس والله ظننت أن الوقت مرَّ، عم عبد القادر جرى وسحب بقرتيْه وراح ليحرث الأرض، البهائم دخلها النورُ وراحت أصواتها تملأ النجع، أخذت الحيرة تضرب رؤوس الناس، لكنهم عرفوا بعد ذلك أنها زينب، أمها نفسها أقسمت بالله أنها ما أحسَّت بألم في الولادة، وأنها استيقظت فغشى النور عينيْها، كانت البنت تتلألأ مثل قطعة من البلور.. قمتُ وبدلت ملابسي بعدها جاءتني طرَقات أبو زينب، فتحتُ لأجده يُمسك باللوح الطويل والدواسة الصغيرة، أمسكتهما منه وحملتهما على كتفي ومشينا، النسيم كان رقيقًا، الأنفاسُ طازجةٌ تُعبئ رئتينا فننتعشُ، نزفر بصوتٍ مسموعٍ كأننا نفرغُ شحنات من أنفاس قديمةٍ فاسدةٍ، جاءني صوتُ بهائم الناس وهي تزعق على إفطارها، دخلتني شقشقة العصافير على الشجيرات، العربات الكارو ترمح على جسم الطريق، عبرنا الجسر ومشينا على المدق الذي يفصل الترعة عن الزروع، الماكينات تهدرُ في البعيد، أصواتُها تمحو ما عداها من أسس تباشير الصباح، اقتربنا من الأرض فخلع أبو زينب جلبابه النظيف وبقى بالصديري والسروال الوسيع، نظر إلى أرضه وراح يقسمها بنظره ويشير بيده إلى أحواضٍ، وضع التخطيط في دماغه ثم أمسك باللوح وثبته وتفل في راحة يده ودعكها براحة يده الأخرى وأشار لي، ربطتُ جلبابي حول وسطي وأمسكتُ بالدواسة وضغطت بها على مقدمة اللوح بقوةٍ، أخذ يسحب ويمشي وأنا وراؤه بالدواسة حتى يكتمل الدرباس فننتقل لغيره، وكأني كنتُ ألمحُ أن للشمس تكشيرةً، وبدا أنها تعاركنا وتمدنا بأرطالٍ زائدةٍ من حرارتها، العرقُ يسحُّ من أجسامنا، حين اقترب النهارُ من الانتصاف أخذت أمرر بصري باتجاه الطريق، وحين يكون الدرباس عرضيًّا فإنني أتحين

الفرص وأنظر ورائي خِلسةَ، ستأتي زينب، ربما هي على الجسر الآن، ضغطت بالخطأ وأنا أفكر، سحب أبو زينب فانزلقت وجاءت الدواسة على قدمي، نظرتُ للشمس التي كبرت تكشيرتها والعَرق الذي جعل الدواسة تنزلقُ على مشط قدمي فكاد أن يتقشر، وقعتُ، ترك أبو زينب اللوح وجاءني وأقامني بيده، أشرتُ أني بخير، رجع يمسك اللوح ويترقبني، كل دقيقة تمر كانت تجعلني ألهج بالأنفاس، والشمس لا ترحم ضعفي وتكشيرتها تزدادُ وأشعتها الحامية تحفر في جسمي وتشد العرق الكثير، أخذ معدل نظري للطريق يزداد، لكن نظري– في كل مرة- يرجع خائبًا، وقبل انطلاق الظهر بقليلٍ وضع أبو زينب يده على جبهته كشمسية، كان يُحاول مدَّ شعاع البصَر إلى أقصى ما تسمح به الشمس..

- ها هي زينب.

التفت بقوةٍ، كانت زينب تخطو على الثرى وتكاد تتعثر، جريت إليها تاركًا الدواسةَ وضحكة أبيها خلفي، وحين وصلت إليها مددت لها يدًا مرتعشةً، أمسكتْ يدي بيدٍ واثقةٍ.

- لماذا لم تنادي عليَّ يا ست البنات، لماذا تمشين والأرض مليئةٌ بفصوص الثرى والتي ستتسبب في وقوعك؟
- لا يهم، سأقول لك شيئًا، أنا من قلتُ لأبي أن يُكلمك أنت بالذات لتساعده في صنع الدرابيس.

دخلتني كلمتها وراحت الفرحةُ تتقافز بداخلي كمُهرٍ جموحٍ، كدتُ أرقص مثل طفلٍ، أمسكت بيد زينب وشققنا الطريقَ ناحيةَ أبيها، لاحت مني نظرةٌ للشمس، وقتها، ووقتها فقط، تخيل إلى أن الشمس تضحك، وبقوةٍ.

زَيْنَب

جريتُ في محاولةٍ للحاقِ بالرجالِ في طريقهم للموردة، للاستحمامِ والغوص في عمقِ النهر، حركةُ قدمي كانت تُناسب فرحتي المتخيلة عن اللعب وطرطشات الماء، الجو المشحونُ بالأصواتِ الصارخة، ضرباتُ الموج الخفيف، حركةُ السنابك مع الرجالِ وهم يجلدون المياه لحثّ السمك للإسراعِ إلى الشباك، بنفس سرعةِ القدم كان يمكنني اللحاقَ بهم قبل قلعِهم لملابسهم، لولا ما حدث، والذي حدث هو أن باب بيت زينب انفتح، لم يكن هذا ليوقفني بالطبع، ستخرجُ أم زينب وتكبُّ المياه المحملة بريش الطير المذبوح وبعض مصارينه ومنقاره المكسور، ربما تكبُّ مياه الجردل التي اسودّت من غسيل يومٍ فائتٍ، أو ربما هي كناسة البيت التي ترميها إلى صدر الشارع، وربما تنظر فقط على إثر صوتٍ لخبطاتٍ ظنتها على باب بيتها، المهم أنها ستفعل شيئًا وتدخل لتغلق البابَ مانحةً للشارعِ بعضًا من الاختلافِ في تضاريسه، أو تُعطي سببًا قويًّا للقطط والكلاب والحشرات للتجمع قدام باب البيت، لكن أم "زينب " لم تخرج، ما رأيته هو قدمٌ بلون العاج منحت نفسها للشارع ولي، يتبعها جلباب بيتي أبيض يُداري باقي ملامح القدم والفخذ والحمل الجميل المتمثل في الردفيْن اللذيْن لحقا بالجسم الأم، كأنهما طفلان يتعلقان بدلالٍ، مرأى زينب هو الذي منحنى ثقلًا مفاجئًا لخطواتي، نقلني من حالة الجري إلى المشي السريع إلى المشي البطيء، حتى المشي بنفس مقدار الخطوات سيجعلني أتجاوزها، كان يجب عليَّ أن أجدَ سببًا يؤخرني، وكانت ركبتي التي وضعت يدي عليها لأتأوه من ألمٍ لا أحسُّه، من الواضح أنها لم ترني، بل أكملتُ دورانها ليتبعها ردفاها، وتمشي، أنا الذي لم أكن واضحًا لها قلتُ الحمد لك يا رب، الحمد لك يا الله الذي منحتني الشارع وحدي، ورميت فيه "زينب"، وجعلتني خلفها، ورششت الشارع بالشمس لتطلع بجلبابها البيتي على غير عادتها، الحمد لك أكثر على أنك جعلتني أتأخرُ عن الذهاب للموردة، مَن منا لا يعرفُ "زينب"؟ مَن منا لا يعرف بيتها الذي لعنَّا من بناه لأنه لم يترك إلا كوةً واحدةً تبدل هواءهم وتمنحهم شمس النهار، كلنا نروحُ إلى الكوة القريبة من الجبل، نطل داخل البيت، ونظل ندورُ بأعيننا فلا نرى أثرًا لأحدٍ، كلنا لعنَّا بيتهم الذي ابتعدت فيه دورةُ المياه عن المكان الذي تطل عليه الكوة، كثيرون قالوا إنهم رأوها عاريةً، "علواني" كان واحدًا منهم، وهو مصدرٌ غير موثوقٍ في روايته، هو لم يعرف كيف يصفُ بياض جسمها القادر على سحبِ الحروف وتشكيلها في كلماتٍ تناسب رهبة الموقف، "علواني" قال إنها كانت تدعك رجلها بالحجر، هذا كذبٌ ظاهرٌ لأنها

حتى وإن قلعت ملابسها في باحة البيت، فإنها لن تدعكَ رِجْلها بالحجرِ مثل باقي البنات، "زينب" لا تحتاج لهذا الفعل، ربما لو حلفَ شبابُ النجع كلهم بأنهم رأوها عاريةً، أو حتى بقميصِها لما صدَّقهم أحدٌ، لا يُمكن لعلواني أو بخيت أو حَكَم أو عثمان أن يروها عاريةً، حتى لو رأوها فعلًا فسيكتمون هذا الأمر لأنه صعبٌ على الناس تصديقهم، المهم أنه لكي تخرجَ "زينب" في مثل هذا الوقت فهذا شيء عادي جدًّا، لكن أن تخرجَ بجلبابها البيتي الخفيف فإنه لا بد أن يكون هناك سببٌ من ثلاثة، إما أنها خارجةٌ لسببٍ لا إرادي كصريخٍ أو زغاريد أو عراك بين أبناء النجع، وعدم وجود الأصوات– وخروجها بهذا الهدوء– كان ينفي هذا السبب، وإما أن تكون تعاركت مع أمها وذاهبة لأحد أقاربها، ولكن طلوعها هادئة لا تصبُّ اللعنات على البيت والنجع والشارع وأنا وكل شيء كان ينفي هذا السبب أيضًا، إذن فهو الحرُّ الشديدُ وحظي الجميلُ المجتمعان في آنٍ، الوقتُ بالفعل كان حارًّا جدًّا وخيالاتٍ من صهدٍ كأشكالٍ شفافةٍ تقوم تتراقصُ في الفراغ، كأنها حتى الخيالات تقتربُ منها وتحاوطها وتتقافزُ على سائر أنحاء جسمها، كأنها حتى الخيالات تُعاندني وتخرج لي ألسنتها، عوامل التعرية قامت بواجبها وشالت وحطت في الترابِ على الطريق، نقلته من طريقٍ إسفلتي إلى أشبه بالمدقّ الترابي، حوافر الحمير وأخفاف الجمال ولعب العيال وضعف الطريق نفسه، كل هذا ساعد ليمنحنا طريقًا مليئًا بالمطباتِ والحفر المتفاوتة الأحجام، الحرُّ الآن جعل حركة "زينب" غير متزنةٍ، تمدُّ يدها للأعلى لتمسحَ العرق، ارتفاع اليد يرفعُ الجلباب البيتي متأثرًا بارتفاع كُم الجلباب، يظهر جلبابُها مبسوطًا مستويًا على رِدفها من ناحية الكُم المرفوع، بينما يبدو مُتكلسًا على الرِّدفِ الآخر، هي الآن تمشي على مهلٍ، وليونة الجسم وتكتل اللحم كانا يحدان من حركتها، ترفع قدمًا وبحسبِ قانون الجاذبية فإن رفعها للقدم كان يرفع معه ثقلًا آخر تمثل في رِدفها الكبير، ذلك يؤثر على ردفها الكبير الآخر فينجذب للأرض، يبقى جسمُها عبارةً عن قطعتين لا واحدة، قطعة تتمثلُ في النصف العلوي الذي لا يتأثر، والنصف الآخر هو الذي تدورُ حوله كل القوانين، الجزء العلوي يندفع إلى الأمام مدفوعًا بحركة القدم، يبدو أن الجسم غير قادرٍ على مواكبة قانون الحركة لديها، الجزء العلوى يُريد الجري، والسفلي كأنه يستجديه غير قادرٍ على ملاحقته، وما بين من يُحاول الإفلات ومن يُحاول اللحاق، فإن الأردافَ تكون غير قادرةٍ على نصرة هذا أو ذاك، قوة الحركة للقدمين والركبتين تؤثر على الردفيْن بالأعلى فما بين هزٍّ خفيفٍ على أرضٍ مبسوطةٍ، إلى رجةٍ قويةٍ نتيجة للوقوع في حفرة لم تلاحظها العين، تلك الهزةُ تتسببُ في انفلاتٍ غريزي للجسدِ، وفرار كل الأجزاء من تحت السيطرة العصبية، الهزة تجعل الردفيْن ينزلان إلى الأرض فيمسانها مسًّا خفيفًا، يندفعان في

ليونةٍ وقدرةٍ إلى الأعلى، يُسابقان بعضهما للحاق بالجسم في حركةٍ غير متناسقةٍ، يهدآن رويدًا رويدًا بسبب الوقوف المفاجئ للقدم بأمر العقل، ربما لكي يُعيد التحكم في سائر أنحاء الجسد المنفلت، هل هناك قانونٌ يقول إن الحركة بتلك الطريقة تؤثر على الموجودات من حولها؟!! هذا ما حصل لي بطبيعة الحال، كنت أرج جسمي بقوةٍ بخبط القدم على الأرض، يأتي صوتُ الخبطة مسموعًا لي وحدي، كنتُ أحاول هزَّ ردفًا غير موجودٍ مصحوبًا بالحركة الظاهرة للردفِ بالأمام، وفي محاولةٍ مني لإنجاح هذا الأمر، كنتُ أميل تبعًا للميل الذي بالأمام وأردد، يمين، شمال، يمين، شمال، اقتربت البيوت العالية وهي المنطقة التي تنمو فيها الظلال، تُمسك بأطراف البيوت من أسفلٍ وتتفاوت في حجمها بحسب الارتفاع نفسه، بحسبةٍ بسيطةٍ وطبقًا لمنسوب تدفق الشمس على رأسي، وطبقًا ليد زينب التي تُحاول خفض كمية الحرارة عن الرأس، فكنت أعرفُ أنها ستتجه إلى الظل، وتمشي بمحاذاة البيوت، تفكيري المستقبلي هذا كان يمنحني وقتًا للحركة قبل الفعل، يزيد هذا الوقت طبقًا لعوامل الثقل المتمثل في بروزات جسم زينب، المهم أني جريت وسبقتها، وضعت يدي على باب بيت "حمزة" كأني أخبط، جلستُ على "المسطبة" أمام البيت في انتظار حمزة الذي لن يخرج، إمعانًا في الخديعة أخذت أحفر في التراب المتكوم على "المسطبة" بحثًا عن شيءٍ لا أعرفه، وربما لتجنب نظرتها ولأعرفها أن جسمها لا يهمني، كنت أعرفُ أنها محاولةٌ واحدةٌ فقط فلن أقدر على الجري قدامها مرةً أخرى، لو انكشف الموضوعُ لها فسأعرفُ ذلك في كلمات أخي " أبو الفضل" الزاعقة، المهم أنها الآن قادمةٌ تتوجع من الحمل والشمس، وكما حسبت بالضبط انحرفت قدماها لتحمل باقي الجسم الذي طاوعها مرغمًا متأثرًا بالحرارة إلى الظل، في منتصف المسافة بالضبط بين الظل والشمس القوية بانت كل التفاصيل، جلبابٌ خفيفٌ يختبئ تحته قميصٌ لا بد أنه أحمر اللون، من تحته فخذان أشفقت عليهما من كل هذا الحمل فوقهما، النورُ كان يشفُّ بقوةٍ ويكشف الفراغ بين الفخذيْن، نظرت إلى الأعلى وخفضت النظرة بسرعةٍ خوفا من نظرتها لي، مشت قدامي وأنا متابعٌ لخطوتها، تاركًا البحث في التراب ومعطيًا لها وجهي، بداي تشكلان مع صدري جزءًا واحدًا، يميلان ويرجعان طبقًا لميل الأردافِ، يرقصان على نغمة يمين، شمال، يمين، شمال، "زينب" تمشي قدامي بجلباب بيتي أبيض خفيف، الشمس والظل بسطا ملامح جسمها، ربما لو حلفت للكل أني رأيتها بهذا الجلباب ومن تحته القميص- الذي لا بد لونه أحمر- لما صدقني أحدٌ.

القِسْمُ الثّانِي
أَوْجَاع

بَيْتٌ قَدِيمٌ تَمْلَأهُ الشُّقُوقُ

الآن دخلتِ بيتنا يا أم، البيت لم تغادره رائحتك، منذ موتك وأنا أحاول تصفية رؤيتي من ظلالك، لكنك تدخليننني وترسبين في داخلي أوجاعًا قديمةً، بيتنا أصبح كئيبًا، ضاعت منه ضحكاتٌ كانت يومًا تملؤه، الشمس تدخلُ من الطاقات العلوية، أقترب من الأشعة الداخلة إلى بيتنا، أنفخ فيها فيتلاعب الغبار، كلما رسب الغبار وهدأت حركته، أمرُّ عليه بيدي فيهيج مرةً أخرى، كنتُ في طفولتي كلما أردتُ الضحك بقوةٍ مررت بيدي على جسم الغبار النائم في عامود النور، أقتل المخلوق المتماسك بداخله وأحوله إلى فتاتٍ يُعارك بعضه، اكتشفت أن الدفء كان متعلقًا بناس الدار، حين غادرته- بعد رحيلكم- إلى بيتٍ آخر، برك الشتاء على جسمي مثل حائطٍ ثقيلٍ، البيت استباحته خيوطُ العنكبوت، السقفُ مثل شبكة صيد مغزولةٍ بغير حرفية، الجدران كانت مشقوقةً طوليًّا، وهناك شقوقٌ صغيرةٌ وغائرةٌ أوجدت لنفسِها مكانًا جيدًا في أجسام الحوائط، اقتربت منها ومسدتها بيدي، ما زالت رائحتك يا أم ترتع في جسم الدار، تصنع داخلي حفرًا من وجعٍ، أمرُّ عليها فتقع عيناي في الدمع، كل شق كان هناك فيه جزءٌ من شعرك، كل شق كان يمنحني ذكرى جديدةً، تدخليننني، أسترجعُ كلامك الغاضب وتتبعيه بغرس جزءٍ من شعرك، تقولين: "شعري هنا لو أفلحت"، كانت الشقوقُ كثيرةً يا أم، وكلها تُبرهن على عدم فلاحي في شيء، في هذا الشق رسبت في المدرسة، كنت غاضبةً يومها

وأنت تمسكين شهادتي المدرسية بيد، وتمسكينني باليد الأخرى، وكانت يدي- غير الممسكة بيدك- تمسح عيني الباكية، الرجل الذي يعرف القراءة والكتابة قال إني ساقط، وأنتِ ضربتني يا أم، ووقت أن هدأ بكائي، أمسكتِ بجزءٍ من شعرك وأغمضتِ عيناكِ وجززتِ على أسنانك وأنت تنزعين يدك بقوةٍ مطلقةً صرخةً قصيرةً، لكنك نجحت في الخروج بالشعر، دفنتيه في الشق وقلتِ: "شعري هنا لو أفلحت".

الشق الثاني كان يومَ أن ذهبت إلى الترعة، أنتِ لستِ طفلًا يا أم لتعرفي أننا نطفئ وجع أجسامنا في الترعة، نقتل الصهدَ والخيالاتِ التي ترسمها الشمسُ أمامنا والعَرق والملابس التي تلتصق، والقصب الذي يتنفس في وجوهنا فيلفحنا بنيرانه، والأسفلت الذي يلين تحت ضغط الأقدام المحملة بالأجسام، كلنا كنا نفرح لأنه لدينا ترعة في نجعنا، وقلت لك يومها وما ذنبي أنا إن كنتِ كبرتِ في نجعٍ ليس به ترعة! والبنات لا يخرجن من بيوتهن مثلنا، لا يشعرن بالحرارة التي تضربُ أجسامنا القليلة، لا يجرين ويمنحن النهار صرخاتٍ كبيرة، يومها لمستِ جسمي وقلتِ أنت الآن جئت من الترعة، أنا لم أرد وجعلتكِ تفكرين، في النهاية ضغطتِ على أسنانك ومنحتِ الشق شعرك، وقلتِ: "شعري هنا لو أفلحت".

الشق الثالث كان يوم أن عرفتِ أني أحب البنت سعدية، قلت يا أم، البنت دخلتني بغير علمي، فجأة وجدتني مهزومًا أمام وجهها المحمول على طبقات الهواء، أهش وجهها فتمزقه ضرباتي ثم يلتئمُ سريعًا ليخايلني، البنتُ دخلتني على حين غِرةٍ، كنتِ تعلمين أني أضع المتاريس بيني وبينهن، ولا أعرف كيف قفزت البنتُ على كل تلك الموانع، رأيتها وهي تمشي في حرِّ النهار، ترفع يدها البضة فوق حاجبيْها تتقي الشمس، جلبابها انحسر عن ذراعها المرفوع فرأيت بياضها الشاهي يا أم، عجيزتها كانت تتمايلُ وهي مبسوطة، يرتفع جلبابُها وينخفضُ على الناحيتين كأنه يرقصُ بلا تعمدٍ منها، أنا وقفت أسبح الله على الصنع العظيم، البنت وقفت أمام بركة الطين التي تحتل الشارع، لا توجد منطقةٌ يابسةٌ تمشي عليها، التفتتْ إليَّ ورأتني وقالت لي: "أريد أن أمرَّ"، جريت غير مصدقٍ، مددتُ يدي فأمسكتُ بها، يا أم هو الله من أوجدني في هذا الموقف، الله من أرسلني للخروج في هذا النهار الحار، الله من صنع البركة، الله خلق لها ذراعًا تنتهي بيدٍ وخلق لي ذراعًا تنتهي بيدٍ، وأمسكت يدها كما أراد الله وكُتِبَ ذلك مسبقًا في سجل قدري، أنا كنتُ مصيرًا لمشيئة الله يا أم، البنت احتضنتني بقوةٍ لما كادت تقع، من الذي أوجد جسمي وهيأه لاستقبال فعل البنت، يا أم نحن كنا بجسمينا ننفذ مشيئة الله من غير أن ندري، وعبرت البنت البركة، ومنحتني ضحكةً رائقةً لا يُخالطها

دنسٌ، ومنحتها ضحكةَ لا يمسها طهرٌ، مددت يدي لأمسك بيدها مرةَ أخرى، لكنها ابتعدت، لماذا لم يطل الله حدود البركة الطينية؟ ولماذا لم يجعل العالم كله طينيًّا في تلك اللحظة؟ بعدها أرسلت البنت خطابًا لي، قابلتها وأمسكتُ يدها دون الحاجة لبركة طينيةٍ، يا أم نحن كنا نطيرُ في فضاءاتٍ نصنعها، نخترع الجو الجميل على حسب مقياس فرحتنا، جئتُ إليكِ وقصصتُ عليك ما كان، بحثتِ عن شقّ جديدٍ في الحائط ومنحتهِ شعرك.

لا أذكر أي مناسبةٍ لذلك الشق، أما الشق العالي فكان حين أردت الزواج لأكتم غيظًا صنعته سعدية بعد ضبطها متلبسةً بالفعل الحرام، قتلوها من غير رحمةٍ، تعرفين أني كنتُ أود الزواج من سعدية، لكنها قتلتني مرتين، مرةً حين تم ضبطُها ومرةً حين تم قتلها، يومها سألتنِي: "لماذا لا تتزوج؟"، قلتُ لك: "لأنني أحب سعدية المقتولة"، يومها جززتِ على أسنانك ومنحتِ الشق شعرك.

الشق الأخير كان يوم سمعتِ أني أشربُ السجائر، أنتِ لا تعرفين أني أبعد مشاكل الناس وضجيجهم بالدخان، السجائر تمشي في جسمي وتُرتق فتقَ الخلايا المدهونة بالوجع، صدقيني كل الناس كانوا يُطفئون سجائرهم بأجذيتهم، أما أنا فكنتُ أمنحها قُبلة أخيرةً قبل أن أواريها التراب، كنت أُقَدّرُ لها موتها من أجلي، روحها التي ترتع الآن في منحنيات جسمي، وكلما انطفأ الدخانُ بداخلي كلما أشعلتُ أخرى جديدةً قادرةً على صَلب طولي أمام وجع الأيام الصعبة، يومها أمسكتِ بي وقلتِ لي أنتَ تشربُ السجائر، كان لزامًا عليَّ الكذب، كذبتُ لأن غضبَك ربما يُصَدّرُ لي وجعًا جديدًا أحتاجُ معه إلى مزيدٍ من السجائر، لكن الدلائل كانت تكشفني وتفضح كذبي، أسناني الصفراء وشفتاي اللتان تلونتا بالسواد، وأنفاسي المعكرة برائحةِ النيكوتين المحروق، خبطتِ كفًّا بكفٍّ وجززتِ على أسنانك وأنتِ تنزعين جزءًا من شعرك وقلتِ: "شَعري هنا لو أفلحتَ"!

الآن جمعتُ شَعرك يا أم، كوَّرته ودسسته في جيبي، يا أم أنا الآن متزوجٌ ولي طفلان، لكني لا أعرفُ هل أفلحت أم لا!

كَمِينٌ لاصطيادِ فَمَامَةٍ شَارِدَةٍ

لم أتخيلْ للحظةٍ أن يكونَ شارعُنا جميلًا بهذا الشكل، الأمطارُ غسلته بضميرٍ، ظهر الوجهُ الأسفلتي البديع، كأن اليوم عيدٌ للشوارع وقد تزين ولبس أبهى حلله، كان لامعًا كمرايا صغيرةٍ متقطعةٍ، السماءُ انعكست على المناطق التي لم تجفَّ مياهُها كلية، فظهر فيها وجهٌ سماوي يُضاهي الأم العليا في جمالها، كان يُشبه امرأةً تضعُ المساحيق للقيا زوجٍ قادمٍ من سفرٍ، ولكم كنتُ أكرهُ هؤلاء الذين سيُدنسون طُهره، سيخرجون الآن مُحملين بالكدرِ وبداياتِ الأيام الكئيبةِ، سيسحبون نعالهم ليجرحوا وجهه الجميلَ، سيصنعون ندوبًا طوليةً وعرضيةً بحركاتِهم التي يملؤها النعاسُ، سيرمون إلى عمقهِ ببقايا لفافاتِ السجائر، وأعواد الثقاب، وبعضٍ من ترابِ التصق بنعالهم ليتحررَ من أسْر البيوت، وستخرج إحداهن لترمي إليه ببقايا ريشٍ وحوصلة الطائر المذبوح، وستخرج أخرى لتفرشَ على مساحةٍ كبيرةٍ من بدنه مياه غسيل اليوم الفائت، وستخرج الأبقارِ، وستجر الماكينات والمحاريث ليطعنوا رئتيْه وقلبَه ورقبتَه ومساحةً كبيرةً من ساقيْه، ستجري العربة الكارو وستصنع خطيْن كبيريْن كحمالتين لا يشدان بنطالا، وبنهاية اليوم ستكثرُ الحمالات حتى تتداخلَ في بعضِها كثوبٍ من الكستور المقلم، سيجلسُ العم جرجس الكنَّاس تحت السور الكبير فرحًا بغير عملٍ، لكنه حين يجد العربةَ المملوءة- حدَّ الطفح- بالمشرفين، فربما يذهبُ إلى مكانٍ بعيدٍ ويملأ حِجر جلبابه بالتراب المخلوط بالأوراقِ والقش والريش القديم، سيبعثرهم على مساحةٍ ضيقةٍ، سيُلملمهم ويُفرقهم ويُلملمهم ويُفرقهم مرةً أخرى بمقشته القديمة، سيمنحونه ابتسامةً واسعةً، وربتًا خفيفًا على الظهر.

كنتُ أضحكُ على العم جرجس، منذ بدأ العملَ كنَّاسًا، وبمرور الأيامِ أخذ ظهره ينحني باتجاه الشارع، كأنه كان يُعلن حبه لولي النعمة، ويومًا بعد يومٍ أصبح يمشي كمحدودب، دائمًا في أثناء مشيه يُوجه نظراته- رغمًا عنه- للشارع، وكان في بعض الأحيان يلتقط الورق القريب من يديْه ويزيحه إلي ناحية السور، وحين تغافله الورقة وتجري إلى الوسط مدفوعةً بالريح، يتبرم ويفتل شاربه ثم يذهب ناحيتها، يلتقطها ويزيحها مرةً أخرى، يُراقبها بعينٍ ماكرةٍ، يسخط ويشتم ويسبُّ لها الآباء والأجداد حين تجري، يُمسكها بعد محاورةٍ سمجةٍ ويكبت حريتها في سيالةِ جلبابه، لذلك لا يُحب أحدُنا المشي مع العم جرجس، يُؤخرنا كثيرًا عن مواعيدنا، أحيانًا ينسى العزاء والأفراح وهو يملأ سيَّالته بما تيسَّر من أكياسٍ وورقٍ وعلب عصيرٍ فارغةٍ ومُصاصة قصبٍ وأحجارٍ صغيرةٍ، حتى حينما تُوفي ابنه كان يجلسُ حزينًا على الدكة الخشبية قدَّام بيته، ينسى حزنَه قليلًا وينط ليسحبَ ورقةً من عرضِ الشارع،

تنظرُ إليه زوجتُه فينظر في الورقة كأنه يقرأ ويرميها سريعًا كأن بها شيئًا لا يهمه، ويرجع مرةً أخرى لتناول وجبة الحزن التي تقطع في قلبه، كنت أضحكُ وأنا أتخيله في إجازةٍ جبريةٍ، بالأمس تعاونتْ الريح مع العم جرجس، وكأنها لاحظتْ تعبه الشديد فهاجتْ على الأوراق والأفرع الصغيرة الناشفة والأكياس وكل ما هو دخيلٌ ويؤرق جسمَ شارعنا، مدَّت أيديها الكثيرة ولملمت التراب وطارت وراء الأوراق التي تُعاند أحيانًا فتلتف خلف الأعمدة وواجهات البيوت وبالجانب البارز من الأعمدة للسور الكبير، لكن الريحَ تضحك بخبثٍ وتهيج أكثر، تسحب كل ما التصق وتبعثرَ وتحتضنهم كأم رءومٍ، وترميهم إلى البراحِ العظيم خلف الجبل، حتى السماء رقَّت ولانتْ وراحتْ تذرف الدمعَ بغزارةٍ كأم مات وليدُها، غسَلتنا وحفرتْ جروحًا كبيرةً في واجهاتِ بيوتنا الطينية، لكنها زاحتْ كلَّ الوسخِ إلى شاطئ الشارع، ودمعة وراء دمعة راح شارعُنا يتجمَّل ويزهو ويسود بلمعةٍ كبيرةٍ، لمحتُ العم جرجس قادمًا كأنه يحمل مقطفًا لحميًّا خلف ظهره المحني، كان حزينًا وهو يركنُ مقشته إلى جواره، استند على السور وحاول أن يُساوي ظهره باستقامة السور، بضع محاولات يائسة طاوع بعدها ظهره ونظر إلى قدميْه والأسفلت، أمسك بمقشته وكنس قليلًا أثناء قعوده، نظر في بداياتِ المقشة بقلقٍ، ورمي الشارع نفسَه بنظرةٍ في الناحية التي كنس بها، ركن مقشتَه ثانيةً، رأيت العربة الكارو وسائقها الصغير يُمسك بعودِ قصبٍ ويُقشره بأسنانٍ مدربةٍ ويرمي بالمُصاصة إلى الشارع، قام العم جرجس جريًا ونادى على الولد الذي توقف بجانب السور، جرى العم جرجس إليه بقدر ما تسمح خطواتُه، أمسك بالولد وطبع على وجنتهِ قُبلةً حانيةً، أمسك العم جرجس بمقشته وراح يُلملم مُصاصة القصب إلى شاطئ شارعنا.

سِلَالٌ خُوصِيَّةٌ

قال له أبوه إن ملك الأرزاق يقومُ قبل الناس كلها، يذهبُ إلى أماكن شغلهم، ويوزع الرزق عليهم، لا ينتظرُ أحدًا، ومن فاته اليوم فلينتظر للغد، الرزق لا ينتظرُ الكسالى، الولدُ تعوَّد على الصحيان قبل مَلَكِ الرزق، تكون أمه قد أنهت طقوسَها الصباحيةَ فحلبت الجاموسة، وغلت الشاي واللبن، يُمسك بالكوب ويقلبه في كوبٍ آخر ثم آخر حتى يبردَ تمامًا، ينفخُ في الرغوةِ التي تكوَّنت على السطح، نظرًا لغضب أمه فإنه يُمسك بقطعةِ عيشٍ قرقوش مبللةٍ بالماء أو بقطعة فايش أو بسكوت بحسب ما يكون موجودًا، يأكل قطعةً صغيرةً وهو يشربُ الشاي باللبن، صنارته وفأسه وكيس السمك في المكان الذي تركه بالأمس، يملأ زجاجة المياه ويُبلل كسوتها الخيش كي تظل المياه باردةً أطول فترةٍ ممكنةٍ، يمنح جسمه للشارع الطويل، يجري متقافزًا ومغنيًا وفرحًا، كان أبوه قد أعطاه التفاصيل اللازمة ليتصورَ هيئة مَلَك الأرزاق، قال إنه يلبسُ الأبيض ككل الملائكة، له وجهٌ مستديرٌ يشع نورًا، بفمٍ ضاحكٍ ومبسوطٍ تمامًا ككل الملائكةِ أيضًا.

- كيف أعرفُ أنه موجودٌ في الترعة الآن يا أبي؟!!

- سترى فقاعاتٍ صغيرةً تطفو على السطح، إنه الآن يتنفس..

كان يعرفُ أنه حين تنعكسُ أشعةُ الشمس على سطح الترعة، وتضربه بألقها في عينيْه فإن مَلَك الرزق يُلاعبه، كان المَلك كما قال أبوه، يأخذ حصته من السّلال الخوصية المَليئة بالأسماك، والتي سيوزعها على الناس، ينزل إلى الترعةِ وينتظرُ مَن سيأتي للصيد، يُمسك بالصنانير المطعَّمة بالدود، يأخذ الدود ويشبك الصنارة ويشدُّ الخيطَ ليُعلمك أن الرزق قد جاء، الولدُ يفرح حين تكونُ الأسماكُ بحجمٍ كبيرٍ، ساعتها يعرف أن المَلك دماغه مضبوطة، ويتصور هيئته الفرحانة، أحيانًا كانت الصنارةُ تخرجُ فارغةً، الدودُ الذي يصطاد به هو نفس الدود وجلسته على حافة الترعة هي نفس الجلسة، يعرفُ لحظتها أن الملك لا يكون مبتهجًا، هو لن يقسو عليه، ولن يطلبَ منه الرضا بالسمك في وقت الزعل، لكنه كان يتمنى أن يراه، أن يحكي له عمَّا يجعله فرحانًا ليفرحَ معه، وما يجعله حزينًا ليحزنَ لأجله، الولد توطدت عَلاقته بالملَك كثيرًا، وكان يرمي صنارته حين يعرفُ من الفقاعات أن الملك قد جاء، تلك الفقاعاتُ تطفو لتلامسَ سطح المياه، وتتحول إلى مويجاتٍ صغيرةٍ دائريةٍ تتسع وتتسع وتنتهي حياتُها على حافة الترعة، في مرةٍ ألقى عليه حجرًا صغيرًا ليُلاعبه، هرب الملك ولم يمنحه السمك، ربما زعل الملك لحظتها من تصرُّف الولد، وظل وقتًا قبل أن يُصالحه، إذن لماذا لا يزعل الولدُ حين يكون مِزاجُ الملك

متعكرًا؟!! لماذا لا يزعل حين لا يُعطيه السمك في اليوم كله؟!! هو يعرفُ أنه يضحكُ معه وبالتالي لا يزعل، أيكون الملك كما يقول أبوه حين يكون متضايقًا أن: "روحه في مناخيره"، في مرةٍ غاب الملك لمدة ثلاثة أيام، العيالُ كلها كانت تتمشى على الترعة يشكون من قلة السمك، قال الولدُ ربما يكون الملك مريضًا، لما رأى الفقاعات تخرجُ كثيرةً وراء بعضها عرف أن الملك جاء، لكنه متعبٌ ويأخذ أنفاسَه بصعوبةٍ، سند الولد صنارته بجوار شجرة السنط التي يستظل بها، قلع جلبابه الكستور، والمقلم بالخطوط الطولية، ورفع سرواله، غطس مرةً واحدةً وفتح عينيه في الماء، كان يودُّ أن يراه، أن يواسيه في تعبه، وأن يقول له: "ألف لا بأس"، لكن الولد تألم حين تلاقت عيناه مع المياه المخلوطة بالطين، خرج مسرعًا وجرى إلى الساقية ليغسلَ عينيه بالماء النظيف، في أثناء جريانه نظر إلى الترعة، ووسط الرؤية المغبشة، رأى خيالًا لرجلٍ أبيض جميلٍ يلبس عمامةً وجلبابًا أبيض زاهيًا، يُمسك بسلالٍ خوصيةٍ مليئةٍ بالأسماك، غسل الولد عينيْه ورجع بسرعةٍ، نادى على الملك، وعرَّفه أنه رآه، لكن الملك لم يطلع وإن طفت الفقاعات لتخبرَ الولدَ أن الملك موجودٌ بالأسفل، في الأيام التي تلت ذلك الموضوع كان الولدُ مبسوطًا برؤيته للملك، وكان يحفظ الحكاياتِ من أمه ليحكيها له، كان الملك يفرحُ ويفرحُ ويُعطيه الكثير من السمك، قال الولد لأمه إن الملك يُحب حكاياتها، ضحكت الأم ومنحته الكثيرَ من الحكايات، ومنحها الولدُ الكثيرَ من الأسماك، في يومٍ رأى عمالًا يحفرون، وفي الأيامِ التالية بنوا أساسًا حجريًّا لبيتٍ جديدٍ، كانت الأصواتُ قد أصبحت مصدرًا للقلق، الولدُ كان يحسُّ أنه مُراقب، يدورُ بعينيْه في الأماكن المحتملة فلا يجد عيونًا تتلصصُ، ما عاد الملك يُعطيه الكثيرَ من الأسماك، على الرغم من أن حكايات الأم لم تنتهِ، كيف يتصرف الولدُ ويقنعه أن هذه مسألة وقتٍ وسوف ينتهي كل شيء، كان البيت قد اكتمل تمامًا وأصبح له سورٌ خارجي، في يومٍ كان الولدُ يحفرُ بفأسه الصغيرة، يُمسك رأس الدودة ويُصفر، يسحب الجسم الرقيق والممطوط- برفق- من بطن الأرض، باب السور انفتح وطلعت منه بنتٌ نظرت اليه بتساؤلٍ واضحٍ، كانت البنت تُمسك بجريدةٍ خضراء وخيطٍ وصنارة، كان من الواضح أن من ربط الخيط في "الجريدة" لم تكن له خبره بالصيد، ولم يعرف حتى كيف يربط مقدمة الخيط في الصنارة، الولد قال لها بود أن البنات لا تصطاد، وأن الأولاد فقط هم من يفعلون ذلك، البنت تكنس وتمسح وتغسل وتعجن وتقعد قدام الفرن، يأتي الولد ليأكلَ ويلبس ويوسخ المكان، نكست البنت رأسها في زعلٍ واضحٍ، فك الولد عقدة الجريدة المربوطة بالخطأ، وربطها مرةً أخرى بإحكامٍ، وربط الصنارة في طرف الخيط الآخر، أعطى البنت قليلًا من الدود، وعرفها كيف تطعم الصنارة، وترميها في الماء، لم يكن الملك قد

لاحظ وجود البنت ولم يعطها السمك، في حين أن الولد القديم في معرفة الملك كان يحصلُ على الكثير، البنت ظلت تنظر للولد بعيونٍ متسائلةٍ، قام وراح إليها، ونادى على ملك السّلال، وبدأ يكوّم المعرفة في عقلها، قال للملك إن البنت تحب أن تتعرف عليه، لم يمسِ الولد إلا بعد أن طفت الفقاعات على سطح الترعة، أمسك الملك بصنارَة البنت وشدها بقوةٍ، أخرجت البنت صنارتها وأمسكت بالسمكة وجرت إلى داخل البيت وهي تنادي على أمها، ضحك الولد وشكر ملك السلال على كرمه الزائد ولثقته فيه حين أخبره عن البنت، في الأيام التالية كان يُلاحظ أن البنت تحب أن تعمقَ علاقتها مع الملك الساكن في الترعة، كان من الواضح أن الملك قد بدأ يستجيبُ لمحاولاتها، البنت عرفت كيف تحكي للملك حكاياتٍ جميلةً، الولد نفسُه كان يقتربُ ويُنصت إلى البنت، كان يزعلُ حين تنادي الأم على بنتها ولا يعرفُ نهاية الحكاية، حتى أمه حين كانت تُحاول اختلاق نهايةٍ جديدةٍ تليق بالحكاية لم تكن تفلح، ودائمًا كانت النهايةُ التي يسمعها من البنت أجمل من نهايات أمه، المهم أنه حتى الملك كان ينتظرُ حكايات البنت، يعرفُ الولد ذلك حين يلاحظ الفقاعات في غير الأماكن التي يرمي فيها صنارته، يروح الولد إلى منطقة الفقاعات، لكن الفقاعات نفسها تنتقل إلى مكانٍ آخر من أماكن جلوس البنت، لم تعد حكايات الولد تفرح الملك، ولم تعد الأم قادرةً على ابتكار حكاياتٍ جديدةٍ تنافسُ حكايات البنت، على كل حال لم يكن هذا يُضايق الولد، ما ضايقه فعلًا أن الملك فرَّط في عَلاقته به لمجرد أن حكايات البنت متجددة، هو لا يقدر أن يمنع صاحب السلال من الاستماع، ولا يقدر أن يُقنعه بالرحيل إلى منطقة لا توجد فيها البنت، لكن على الملك ألا ينسى عِشرةَ قديمةً، وألا يُركز فقط في البنت التي تملأ الكيس بالأسماك كل يوم، في يوم حكت البنتُ للولد حكايةً لم يكن قد سمعها من قبل، حكاية عن بنتٍ جميلةٍ كان السلطان يُريد أن يُزوجها لابنه، رفضت البنت وقالت إن هذه حياتها، ولا يُمكن لأحدٍ أن يُزوجها لأحدٍ رغمًا عنها، حتى وإن كان السلطان، ويُقال إن السلطان ضرب البنت بالسيف وظن أنه قتلها ورماها في الطريق، لكن البنت لم تمت وكانت الجنيَّة الطيبة قد رأت البنت فعالجتها وسحرتها إلى ذئبةٍ ودخلت الذئبةُ إلى قصر السلطان وقتلت السلطان وابنه وجعلت أباها سلطانًا، راح الولدُ وحكى الحكاية لملك السّلال، بالطبع أعجبته الحكاية، ومنحه الكثير من السمك، لكن هذه مرة واحدة والبنت جاملته بالحكاية، ولم يعرف كيف يسرق الحكايات من دماغ البنت، في النهاية عرف أن حكاياتها لا تنتهي، وإعجاب ملك السّلال لا ينتهي أيضًا، الفقاعاتُ لا تطفو إلا في المكان الذي تُوجد به البنت، غضب الولد، لكن الملك لم يستجبْ له لأنه لم يسمعه، ولن يسمعه إلا في المكان الذي تُوجد به البنت، في اليوم

التالي راح الولدُ إليها، وصرخ في الملك الساكن أمام بيت البنت، قال إنه مُقصر في حقه، وأنه غاضب جدًّا ولن يرضيه أن يعطيه سمكةً أو سمكتين ليصالحه، ضحكت البنت وضحكتها ضايقت الولدَ جدًّا، اغتاظ منها ومن الملك، ومن غير أن يرى الملك، ومن غير أن ترى البنت، أمسك حجرًا كبيرًا وجرى ناحية البنت وبالضبط في مكان الفقاعات رمى الحجر، ولم ينتظر سماع صر خات الملك.

شَمْرُوش

1

الليلُ يُحكم قبضتَه على الدنيا، القمرُ ينزلُ ويفضحُ ملامحَ المقابر، نهنهةٌ خفيفةٌ من شخصٍ يبكي هي فقط من تُعكر صفو الصمت، كان ينحني على القبر، يُقبل التراب بكامل ملامح وجهه ولحيته وشعره، يرفعُ رأسه للّه في السماء ويقول يا رب أنا المحتاج لعطفك، كلي ليس ملكي، وبعضي يُعارك بعضي، منذ أن ماتت البنت يا رب وملامحها تشتبكُ بملامحي، تغوصُ بي في بحورٍ ليس لها شاطئ، قدرني يارب وامددني بيدٍ تصلحُ كمجدافٍ ينقل أشرعتي الممزقة إلى برّ آمن، ضعيفٌ أنا ومكسورٌ أنا، من الذي يلف كسري بجبيرةِ الرحمة إلاك؟ هيّئني للفرحة يا رب أو هيئ الفرحة لي وانقلني من هذا العذاب الذي يحرقني بالبطيء و..

بتر عبارته حين أحسَّ بأحدٍ ما يُراقبه، نظر يمينًا ويسارًا في شكٍّ معجونٍ بالحيرة، ترك القبر ورأى ذلك الخيال الشفيفَ الذي يُشبه ترقرق الماء، كان الخيالُ يقتربُ منه، حاول الجري لكنَّ قدميْه وفضوله ما طاوعاه، رأى الخيال يقتربُ أكثر، بسط يديْه أمامه يُحاول أن يتقي خطرًا لا يعرفه، وقف وأصابته تلك الرعشة حين دخل الخيالُ في جسده، نظر إلى يده فوجد عروقها تنفرُ وملامح الخيال تشتبكُ بملامحه، العروقُ تمتزجُ ببعضِها، أخذ نفسًا عميقًا وتنهَّد بقوةٍ.

2

قاعةُ محكمةٍ كبيرةٍ والقاضي يُشبه خيالًا جالسًا وبيده مطرقةٌ كبيرةٌ ومن خلفه رسمٌ لخيالِ امرأةٍ معصوبةِ العينين تمسك ميزانًا كفتاه غير متوازنتيْن، تنحنح القاضي واتجه إلى الشخص الجالس خلف الأسوار التي استطالت حتى أمسكت بالسقف، كان الجالسُ داخل الأسوار يتنقل في الهواء ويطيرُ حتى يلمس السقف وينزل في توترٍ واضحٍ.

- **شمروش بن جاروش المابوني.**

قال القاضي الاسم فوقف الخيال داخل الأسوار فبدا كأنما هو قطعةٌ منفصلةٌ من بحرٍ، وهو يردد بصوتٍ عالٍ..

- **نعم..**

3

وقف الولد وتنهَّد بقوةٍ ونظر إلى الفضاء الذي يُحيط به، المدافن كثيرةٌ والقبورُ تبرز من فوق الأرض كأنها دواملُ كبيرةٌ، رجع إلى البيت وقابلته أمه وكلمته عن البنت فاطمة، قالت له تزوَّجها يا بني

فهي جميلةَ الملامح ولها من القبول قدرٌ كبيرٌ، ستريح عيالك في الدنيا ولها نشأةٌ صالحةٌ، قال الولد إنه يُحب البنت التي ماتت، نعم كان يُحب البنت، لم يكن يُحبها بقلبه بل بكلّ عظمةٍ تُكوّن ملامح هيكله الجسدي، وحين جاءها الولدُ الذي وافق عليه الأب جاءته وقالت له إن أبي وافق على الولد، هيا نهرب معًا ونقرأ سرَّ فرحتنا بعيدًا عن النجع، قال لها ما أنا ذلك الذي يسمح لهم برميك بالقذر من الكلام ووسمك بالعهر، قتلت البنت نفسَها وماتت، قال لأمه إنه لن يتزوجَ إلا التي ماتت من أجله في الجنة.

4

قالَ القاضي:

- أوراقُ قضيتك تقول إنك ساعدت الولد، وتعرفُ أن لبس البشر بغير داعٍ، هي جريمةٌ في عُرف الجن يا شمروش، ما الذي حملك على فعلك ولمَ لبست جسده يا ولد؟

وقف شمروش وتذكر، كان الليلُ يُحكم قبضته على الدنيا والقمرُ ينزل ويفضحُ شكل الطريق للناس فيمشون بطمأنينةٍ، كانت النهنهةُ واضحةً تتلمسُ طريقهَا بسهولةٍ وسط دوامة الصمت المبسوطة في المقابر، الولد ينكفئ على القبر وقد طالت لحيتُه الترابَ، وقف الولدُ ونظر إليه ورآه، اقترب منه شمروش، كانت هناك دمعتان وجدتا طريقهما إلى وجنتيْه، ما الذي يجعلُ الولدَ يُهمل نفسه ويبكي بهذا الشكل؟ لماذا يُحب أن يُساعد الولد؟ اقترب منه شمروش، كان يعرفُ أنه سيُحاكم من أجل مساعدته له، لكنه قال: ليفعل اللّه ما يكون!

5

في كلّ مرةٍ تُكلم فيها الأم ولدها عن فاطمة تجد منه صدًّا عنيفًا، لم تلن عزيمتها، كل حب يمحوه القِدم، وكل منا يُشبه ترسًا في عجلة الحياة، ترسٌ يعطبُ، وترسٌ يصدأ وترسٌ يتآكلُ، وتتغير التروسُ وفي النهاية العجلةُ نفسُها لن تتوقفَ، ولما رأته اليوم قالت له: ومال فاطمة يا ولدى؟ هي بممحاةِ الفرحة ستُبدل مآسيك، وستعبرُ بك إلى فضاء العالم الرحيب حيث الفرحة المتخيلة. قال: يا أم، إني أحب فاطمة منذ زمن، ولا أعرف عن أي مآسٍ تتكلمين، يا أم هيا بنا إلى فاطمة فالعمر يجري، والزمنُ يحط رحاله على وجوهنا فيشد جلودَنا ويُكرمشها. وقفت الأم، ما الذي عدّل دماغ الولد إلى الدفة التي تُحبها؟ غير مصدقةٍ قامت، ارتدت ملابسها على عجلٍ ومشت إلى بيت فاطمة.

- هل حاولتَ إصلاحه يا شمروش؟

- نعم يا سيدي، حاولت بقوةٍ، لكنه لم يكن يقبل، كنتُ أعاندُ تيارًا قويًّا يجرفُ محاولاتي إلى هوةٍ سحيقةٍ من نسيان، كانت ملامحُ البنت تمشي قدام الولد وهو يحيا بلا وعي ويجري خلف الصورة المرسومة في الفراغ، البنت تلبسُ كاملَ زينتِها وتقول سأنتظرك اليوم عند المقابر، يروح الولد، وعند القبر تطلع البنت من عقله، وتظل تخايله فيبكي بقسوةٍ، ماذا أفعل وروحُ الولد تروحُ كل يومٍ، والجنون كان تأويلًا حتميًّا لأفعاله؟ كانت أمه تقول له: سنزوجك فاطمة! وتقفُ البنت التي يُحبها متراسًا كبيرًا بينه وبين رغبة أمه، رُحت أنا لفاطمة ورأيتها، هي جميلةٌ جدًّا يا سيدي، أجمل بكثيرٍ جدًّا من البنت التي كان يُحبها، لكن روحها ما كانت كذلك، رُحت إلى عقل الولد ولعبتُ فيه، محوتُ صورة البنت التي يُحبها ووضعتُ فيه صورة فاطمة، ومحوتُ كل ما يتعلق بالبنت التي ماتت، وحين رأى فاطمة يا سيدي كان في حيرةٍ حقيقيةٍ، أنا ما عرفتُ ماذا أفعل، في عقله يعرفُ أنه يُحب فاطمة التي أجبرْته أنا على محبتها، وفي داخله شيء يُعاند، لكني كنتُ أمحو القلق من داخله كلما بدأ يكبر، وأجبرته على الزواج من فاطمة، وأنا سعيدٌ لأنه الآن مرتاحًا جدًّا يا سيدي.

- ألم نقل إنه لا يُمكن لنا أن نتدخل في أقدارِ البشر يا شمروش؟
- وما أدراك أن تدخلي لم يكن قدره يا سيدي، ما دمت تدخلت فمكتوبٌ مسبقًا في قدره أني سأتدخلُ وربما من رحمة ربي به أنني تدخلت.
- وما أدراكَ أنت يا شمروش أن ما كان يمرُّ به الولد هو عقابٌ من الله.. وربما أنت منعت عقاب الله؟
- يا سيدي، لو أراد اللهُ عقابَ الولد لما سمح لي بالتدخل، ولما رمى الشفقة في قلبي الضعيف على الولد، وما أدراك أنت يا سيدي أن مروري بالمقابر في ذلك الوقت بالذات، لم يكن من أجل الولد؟

نظر القاضي إلى شمروش وعلقت الأنظار به وهو يضربُ منصَّته بمطرقتهِ موقفًا الهمهماتِ وتهيأ للحكم.

البِنْتُ الأجْمَلُ مِنْ جَمِيلَةٍ

انفتح البابُ بتزييكٍ واضحٍ، وطلعتْ منه بُلغةٌ بيضاء، تبعتها قدمٌ معروقةٌ، وجلبابٌ كان لونُه أبيض، واستحال– مع الزمن– إلى الرمادي الخفيف المبقَّع بالأبيض، أغلق البابَ بعد خروجه بالكامل، رفع جلبابَه قليلًا فبان سرواله الطويل، والذي كان يومًا أبيض أيضًا، واستحال إلى البني الغامق في بعض النواحي، جلس على الأرض مستندًا إلى الأساس الحجري القديم، عدل من جلسته على إثر نتوءٍ كاد ينغرزُ في ظهرهِ، حرَّ نفسَه مبتعدًا عن البروز، وتربَّع على الأرضية الترابية، أمسك بفردتيْ "البلغة" وضربهما ببعضٍ بقوةٍ فتناثر الغبارُ قويًّا ثم بدأ يقلُّ تدريجيًّا، سند وجه فردة "البُلغة" على الوجه الآخر للفردةِ الأخرى، ودسَّ الاثنتيْن تحت فخذه، رأى فرعًا صغيرًا من شجرة أثل منزوع الأطراف ومشذبٍ بعنايةٍ من التفريعات الصغيرة، مسَّد الأرضية الترابية براحة يده، أزال عنها الأحجارَ الصغيرةَ وبقايا القش و"بعْر" المعيز وروث البهائم، وضع حدودًا طوليةً كحدودِ النجع، رسم شارعًا طويلًا تمرُّ به ثلاثُ ترعٍ، رسم أرضًا مزروعةً قصبًا وقمحًا وذرةً وطماطمَ وخيارًا وبطيخًا وأشجارَ تفاحٍ ومانجو وبرتقالٍ وليمونٍ وتكعيبة عنبٍ، لم ينسْ النخيلَ ولا الموز لأنه يُحب الموز، رسم شارعًا ممتدًّا وقسَّمه لأربع حاراتٍ، اثنتيْن في كل اتجاهٍ، لم ينس أن يُقسم الحاراتِ بمستطيلٍ طويلٍ زرَعه بأشجارٍ وورودٍ، رسم عمالًا يقصُّون ويُشذبون الأشجارَ ويسقُون الورود والنخيلَ، لاحظ أن المستطيلَ ضيّقٌ والأشجار تطلع لتتلاقى وتتفرق وتتلاقى وتتفرق فيتسامقها، باعد المسافة للمستطيل وأكثرَ من الأشجار وعدَّل من وضعياتها، كل شجرةٍ على حدةٍ ولا تُلامس أختها، كانت الورود قد استحال لونُها إلى الأزرق، والأحمر، والأخضر، والأصفر، والأسود، لكنه لم يُشاهد من قبل ورودًا سوداء! لا يهم؛ بل على العكس زاد من قوةِ الورود السوداء حجمًا وكثافةً، لاحظ أن الطريقَ غير مضبوطٍ، رسم بروزًا على الجانبيْن كبندوراتِ الشوارع، وجعل العمالَ يدهنونها باللونيْن الأبيض والأسود في تناسقٍ بديعٍ، رسم بيتًا يُطل على الشارع، ربما خرجت العيالُ من البيت مدفوعةً بالمرح والضحك الذي سينسيهم أن هناك عرباتٍ، وشاحناتٍ، ولوادرَ، وميكروباصاتٍ، وعجلاتٍ، وموتوسيكلاتٍ، وربما يكون الموتُ مرسومًا ومتأهبًا على حوافِّ العَجَلِ الأسود، رسم سورًا كبيرًا وحديقةً حوتْ من صنوفِ الفاكهةِ الكثيرَ، رسم حمام سباحة بعدة درجاتٍ للعيال ومنطقةً عميقةً قليلًا يسبح فيها ومعه زوجته جميلة، لم ينسْ أن يجعلَ أساس البيت محتملًا لدوريْن آخريْن، دورٌ له ولجميلة ودورٌ كبيرٌ للعيال، لكل دورٍ أربعة شبابيك مفتوحة على مصراعيها،

نسي أن يضع الأكر التي تفتح الشبابيك وتُغلقها، نسي أيضًا أن يجعلَ لها شيشًا خشبيًّا، بل إنه نسي أن يمد خطًّا يجعله عتبةً للشبابيك من أعلى، رسم بابًا مفتوحًا وخطًّا إلى الداخل فداهمته الرائحة الزكيةُ وشقشقة العصافير، كاد أن يضع يده على أنفه لكنه تذكر أن هذه رائحةٌ طيبةٌ، أخذ نفسًا عميقًا أكثر مما ينبغي مما جعله يكحُّ، رسم سُلمًا خشبيًّا متينًا مزدانًا بدرابزين حديدي يتسند عليه صعودًا ونزولًا، كانت جميلةُ زوجته تقف في نهاية السلم، تسند يديْها على خصرِها وتلوكُ لبانةً يُدحرجها لسانُها على الجهتين، لماذا جميلة؟! مسح صورة جميلة، أغلق عينيْه وأخذ نفسًا عميقًا، راحت صورُ بناتِ النجع تترى قدَّام عينيْه، قلَّب في الصور وقلَّب، ثديٌ مترهلٌ، شَعرٌ قصيرٌ مُجعَّد، عجيزةٌ غير متناسقةٍ مع حجم الخصْر، ملامحُ جامدةٌ، صوتٌ عالٍ، أنفٌ كبيرٌ، مخٌّ صغيرٌ، أجسامٌ ممصوصةٌ، فتح العينيْن ونفخ بقرفٍ، نجعٌ بالكامل لا تُوجدُ به فتاةٌ واحدةٌ تليقُ به، أغمضَ عينيْه مرةً أخرى، رسم صورةً لامرأةٍ بشعرٍ ناعمٍ مسترسلٍ يتطايرُ مع الهواء، بأنفٍ جميلٍ مستقيمٍ وعينيْن خضراوَيْن، وثديٍ مكتنزٍ ملفوفٍ بمهارةٍ مع خصْرٍ نحيلٍ ورِدفين ثقيلين على قدمين مرمريتين، كانت البنت أجمل بكثيرٍ من جميلة، تلبس قميصًا أحمر ذا كلفةٍ يبرز من مقدمته ثديان يتدافعان للخروج إلى البراح، رسم حوائطَ مرشوشةً بالجير الملون، وعليها رسومٌ لشبابٍ مع خيلٍ ومعارك وانتصارات وأسْرى وغنائم حرب، لم ينسَ أن يرسمَ كعبةً وطائرةً ومسجدًا بمئذنتين، ورجلًا يُشبهه يلبسُ ملابس الإحرام، رسم سريرًا نحاسيًّا بأربعة أعمدة وتغطي السرير كله ناموسيةٌ بيضاء، كان السريرُ من النوع الذي يُصدر أصواتًا كتنغيماتٍ جميلةٍ موافقا للاهتزاز الخفيف، والدلع المسكوب بكثرةٍ على المرتبة الإسفنجية، قام من السرير وفور قيامه انتفخت المرتبةُ الإسفنجيةُ غير متأثرةٍ بالحركاتِ القوية، ضرب جبهته براحتهِ، كيف ينسى أن يرسمَ الحمام، أسينزل للأسفل بعد كل مرةٍ يضع فيها عيلًا أو اثنين داخل الرحم المهيأ لإنتاج العيال؟ لكن هل يجعل الحمَّام بداخل حجرة نومه أم خارجها؟ ضحك فالمساحةُ كبيرةٌ، ضحك كثيرًا وهو يرسم حمامًا داخل حجرة النوم للاستحمام فقط، ورسم حمامًا آخر في الطرقة لقضاء الحاجة، ولكيلا تدهمه الروائح العفنة، لكنه سيتعب إن قام ونام وقام ونام وقام ونام، استحمامٌ كثيرٌ وحركةٌ أكثر، ضحك كثيرًا وهو يرسمُ صنبورَ مياهٍ يُمسك بمقدمته خرطومٌ طويلٌ، الصنبورُ يقع أعلى السرير النحاسي، لم يكن يُقلقه أن تنسابَ نقط المياه من الصنبور إلى الجدار إلى المرتبة، بل على العكس تمامًا، ارتجَّ جسمُه ضاحكًا وهو يفتح الصنبور ويُحرك الخرطوم ليروي شبق الجسم المحتاج، لم يكن يقلقه أن تمتلئ المرتبة الإسفنجية بالمياه، كان مبسوطًا ومبسوطًا جدًّا والمياه تُغرق الحجرة وتفيض وتعلو على

السرير النحاسي وسط ضحكاته، وضحكات البنت الأجمل من جميلة، كان يُعجبه ذلك الجو المنعش والمياه الساقعة، رسم عيالًا كثيرةً أبناء وأحفادًا، رسم بنتين وجبةً وقفطانًا وعصًا معقوفة الآخر على شكل حية، رسم رجلًا يُشبهه يمدُّ ذراعيْه فتدور البنتان من حوله وهما تُلبسانه الجبة والقفطان، المرأة كانت تُمسك بطستٍ وإبريقٍ نحاسييْن، وتنتظره كي تغسلَ القدم بالمياه التي لا بد أنها دافئةٌ، كان العيال يمدون أيديهم، وهو الذي أخرج حافظته الجلدية، ومرَّ على أيديهم بالجنيهات، رمحت العيال كلها إلا ولدًا كان يبكي لأنه قد نسيه، أخرج جنيهيْن وأعطاهما للولد تكفيرًا عن ذنب نسيانه، كان العيالُ وآباؤهم وأمهاتهم لا يشبهون زوجته جميلة، إنها ليست جميلة، لقد استبدلها بالبنت الأجمل منها، استبدلها لأن لها حسًّا عاليًا، وحنجرةً تقرقع في كل وقتٍ، إنه يُعاقبها، لقد كره رؤيتها في كل حينٍ، لا ينقص إلا أن تنقش صورها على الجدران، كره رؤيتها، صوتها فضيحةٌ يكاد أن يشد الناس من بيوتهم على اختلافهم، هو يعلم أنه مُقصر في حقها، لكن ليس هكذا تتصرف بنات الأصول، إنهن يصبرن ولا يفعلن مثلما تفعل جميلة، ثم إنه رجل، وهل حرام على الرجل أن يُفكر في امرأةٍ أخرى؟ فكَّر قليلًا ثم تنهَّد ورسم بيتًا آخر هو ليس كبيته بالطبع من حيث الجمال، ووضع للبيت شبابيكَ لا تفتح، ورسم جميلة بداخل البيت، لم ينس أن يضع لبيتها أساسًا حجريًّا يُؤلمها في ظهرها كلما جلست خارج الدار، قام متكئًا على نظره الضعيف ومستندًا إلى الأساس الحجري، لبس بُلغته ومدَّ يده ليفتح البابَ، خطا للداخل فداهمته رائحةُ الحمام وحاوطته وأخذت تتسربُ إلى أنفه بقوةٍ، أمسك أنفه وأسرع من خطواته ودخل الحمَّام، أمسك "بالكوز" الحديدي ووضع قليلًا من الماء في عين الحمَّام ثم غطى العين بقطعةٍ خشبيةٍ صُممت لهذا الغرض، بالطبع لم تتلاشَ الرائحةُ وإن خفَّت حدَّتها، كان سلم البيت مجدولًا من فلوق النخل المسقوفة بجريد النخل أيضًا والمدملكة بالطين، وكانت عوامل الزمن قد شالت وحطَّت، فتكوم التراب في بعض المناطق، وبان الجريد نفسه في بعض المناطق الأخرى، إلى جانب أن درابزين السلم كان مبنيًّا من الطوب وهو ما جعله يتهدم في معظم المناطق، داسَ بقدمه على السلم فقرقع وصرخ وكأنه يُنبئ عن عدم قدرته على احتمال هذا الثقل، صعد محاذرًا ومتسندًا على الجهة الأخرى من الدرابزين، كحَّ بقوةٍ أثناء صعوده، وقبل نهاية السلم وجد يدًا تشده بضعفٍ إلى الأعلى، دخل إلى حجرة نومه فوجد سريره الخشبي، وقطعًا من الخشب المركونة فوق بعضها، كانت تُمثل في يومٍ ما دولابًا صغيرًا، على السرير كانت هناك مرتبةٌ مترهلةٌ طلعت معظم أحشائها إلى الخارج، وسال بطنُها الأبيض على الأرض، كانت الجدران كالحةً تمامًا وبان طوبها اللبِن، ومن أعلى

فإن العنكبوت كانت قد صنعتْ سقفًا من الخيوط تحت السقف الأصلي المكونِ من فلوقِ النخل، حاول أن يفتح الشباك الوحيد فلم يفلح، ربتت جميلةُ على ظهرهِ، ودارت بجسمِها لتواجهه، ولمحت دمعةً سالت على وجنته، طبطبت عليه قائلةً: "كل شيء بيد الله، ربما يمدك الله بعيالٍ كثيرةٍ في الآخرة، وربما يبدلك الله بحورية من الحوريات التي هي أجمل مني وأحن عليك مني، ولن يكون لها صوتٌ مسرسع وحنجرةٌ تقرقع".

نظر إلى وجهِها الذي كساه الزمنُ بغبارِ السنين، وأبعد جسمها المنحول.

- أحضرلك الميه تستحمى؟

أشار نفيًا ورجع إلى السلم، ونزل درجاته محاذرًا ومستندًا، كتم أنفاسَه في أثناء عبوره من أمام دورة المياه، فتح الباب وجلس نفس جلسته واضعًا بُلغته تحت فخذه، ومحاذرًا من بروزاتِ الأساس الحجري للبيت القديم، أمسك بالفرع الخشبي، مسح البيت الآخر الذي كان لجميلة، مسح البنت التي كانت أجمل من جميلة، مسح المياه التي فاضت من الحُجرة، مسح العيال كلهم، رسم سريرًا خشبيًّا، وقطعًا خشبيةً كانت يومًا ما تُمثل دولابًا، رسم بُلغةً جديدةً مركونةً تحت السرير الخشبي، رسم جسمًا نحيلًا ممصوصًا بالضبط كان يُشبه جميلة.

الوَسْوَاسُ

الآن لاحظت تلك النحافة التي تسري في جسدك، لاحظتها حين اتسع البنطالُ، وبدا أن هناك فراغًا بمقدار قبضة يد بين البنطال وجسدك، الحزام الجلدي تخلى عن ثقبهِ المعهود لتبحثَ عن ثقبٍ آخر يتناسبُ وذلك الجسد الجديد، الآن ستبحثُ عن خياطٍ جديدٍ يُلائم وضعية جسدك للملابس، ستفكر كثيرًا كيف تتلاشى تلك النحافة، ولكن الجميل في الأمر أنك لاحظتها، والفضلُ يرجع للبنطال الذي اتسع، وعودتك إلى حجمك الطبيعي ستجعلك تمر بطريقٍ طويلٍ، يسكن فيه الأطباء والعرافات، وكل من يمكنه أن يمنحك نفس الجسدَ السابق ببضع وصفات، سيمرُّ جسدك بكثيرٍ من المتغيرات في الهرمونات العادية، سيتحتم عليك الإكثار من النشويات التي تكرهها، أنت تكره كل شيء في الحقيقة، ستقللُ من شرب الشاي، أنا لن أقدر أن أقول أنك سوف تُقلل السجائر، ولكن عليك المحاولة، الأهم من ذلك أنك ستضطرُ إلى تغيير أصدقائك، صدقني لا يوجد أحدٌ حميمي، وبنفس الطريقة التي اجتمعت بها معهم سيمكنك معرفة غيرهم، صدقني، ستظل كعلكةٍ تتقلب بين أفواههم، وخذ عندك مثلًا، سيقولون إنك تضاجعُ حميدةً، وتفكر كثيرًا في كريمة، لماذا نحفت إذن؟ تخيل أنك قلت واللّه لم أزر ماخورًا، سيترتب على ذلك تفكيرٌ آخر، هل تريد القول إنك تُمارس عادتك السرية بكثرةٍ، هل ستسمح لهم بالتفكير في شيء آخر، أنت تعرفُ تفكيرهم وفي الحقيقة أنت واحدٌ منهم، تمامًا كما يتزوج أحدهم وتظل تُراقب مؤخرته يومًا بعد يومٍ، وتظل تلاحظ الزيادة التي تتضح، حتى يأتي اليوم وتضحك وأنت تخبره أن مؤخرته تضربُ جانبيْ الطريق أثناء السير، يُحاول أن يقنعك أن فعل اهتزاز اللحم المتكوم ليس لأنه يهز جسده كثيرًا في الأوقات الحميمية، وأنه فعلٌ عادي لتوقف التفكير في أنثى تليقُ به، تنكر عليه هذا القول، وتذكره أن رجرجته ظاهرةٌ حتى في مشيه العادي، إذن ما الذي يمكنك أن تفعله حتى تتقي نظراتهم؟ ويبتعد جسدك عن مرمى كلامهم؟ عليك أن تهدأ تمامًا وتتعلم اللامبالاة، سيقولون لك إن أختك تمشي مع فلان، لن تهتم وأنت حداثي بما يكفي، بمعنى أنك سترمي الأمر لحقها الطبيعي، سيقولون لك إن البنت التي تحبها تراسل غيرك، صدقني بإمكانك حين تعود إلى طبيعتك أن تجد غيرها، ستضع في ذهنك أن الدنيا تقلب الناس، من سيشتمك غدًا سيلاحظ حتمًا أنك غير مهتمٍ، وبالتالي فربما يجيء لك في الغد، وسيفرد اعتذاره على مساحةٍ كبيرةٍ، ستتقبل اعتذاره لأنه لا يعنيك حتى لو ظل مبتعدًا، سيظنون أنك تعبدت وأنك من معمري المساجد، سيؤثر عليك ذلك قليلًا لأن البنات لا

يحبذن هذا الرجل، لكنهم سيتناسون ذلك تمامًا، حين يعرفون أنك ما زلت راقدًا بينما شيخ المسجد يكاد يقطع أحباله الصوتية في خطبةٍ يحفظها كل النجع، والآن ارتحْ تمامًا وهيئ نفسك للوضعيةِ الجديدةِ، لن تكلم البنت التي تحبها اليوم، الحب في حد ذاته سيورطك أكثر، وسيتسع بنطالك أكثر، تعلم تمامًا أن لديك طاقةً كبيرةً ينبغي عليك صرفُها، إذن ما هو الفعل الذي يجعلك تُفرغ مشاعرك كلها دون الحاجة للحب، لديك بديلان، إما أن تحب أكثر من بنت، وإما أن تغوي إحداهن لتفرغ كبتك فترجع إنسانًا جديدًا، هل تعلم أن الحب ما هو إلا عبارةٌ عن ترسُّبٍ لهرمون "التستيرون" وهو الذي يجعلك تفكر كثيرًا في بنت، صدقني هو احتياج، أنت تحتاج لبنتٍ فلماذا تُنكر، أنت تكذبني، إذن لماذا ارتحت تمامًا ولم تكلم البنت- التي تحبها- بعد عودتك من لقاء حميمي مع سعاد؟ تركتها تلهب هاتفك بالرنات القصيرة المتقطعة، كنت تنظر إليه وتضحك، وحين سمحت لك أن تقبلها، زادت رعشتك وطلبت منها التمادي، أوقفتك وقالت لي بيت ولي أب، وأنت معدمٌ وليس لديك القدرة الكاملة لزيارتها، ظللت يومك كله تفكر، كنت تستدعي قبلتها لتشعل نفسك أكثر، حتى النوم أعلن عن عصيان تام لجفنيْك، غادرت بيتك وقلت أشم نسيم الهواء، ذهبت إلى الترعة ورأيت البيت وهو يعج بالناس، بيت سعاد، ظللت تستدعي قبلة حبيبتك وكنت تقبل الهواء، مشيت تجاه البيت، خبطت على البيت ففتحت سعاد، يا إلهي على سعاد، هل رأيت عنقًا مرمريًّا مصقولًا مثل عنقها؟ دققت كثيرًا في مفرق ثدييها، راحت الكلماتُ ترتعشُ على شفتيْك، وركبك تصطك في بعضها كأنك تعيش شتاءك الخاص، لماذا عرقت وراحت مسامك تشفط المياه وترميها للخارج؟ أنت تحبها يا صديقي، وصدقني حين تكرر زياراتها سيرجع جسدك، وسيرجع نفس الثقب في حزامك الجلدي، وستمشي في النجع، وأنت غير منتظرٍ لكلمةٍ واحدةٍ قد تخبرك بشيءٍ ما غير موجود فيك.

القِسْمُ الثّالِثُ
المَوْتُ

منطقةٌ آمنةٌ في حربٍ

كانت الشمسُ قويةً، الصهدُ يتماوجُ متراقصًا ويتصاعدُ ليتشكلَ في هيئاتٍ شفيفةٍ تشبه ماءً يترقرق، البيوت بخلت علينا بظلالها، والأسفلت يغوص تحت ثقلنا ويقبل تضاريس بحجم أقدامنا على ملامحه اللينة، وخرجت أنت يا ابن العم، كنت تتقافز كرجلٍ بقلب طفلٍ، تُنكر الصهدَ والحرَّ وتطوح جلبابك النظيف لتحرك مويجات الهواء الراكدة؛ قلت لي إن اليوم فرح ابن عمنا البعيد، ووجودنا بجواره يمنح لزواجه عبورًا آمنًا بغير قلقٍ، أنت تعرفُ أني مهزومٌ دائمًا أمام الأفراح، أنا لا أحب الأفراح يا حمدي، لكنك أنكرتَ قولي وهززت رأسك ومسَّدت رأسي بلمسةٍ حانيةٍ، قلتَ لي: "إن الفرحة تُمهد قلوبَ الناس للعيش، وأنها تمنحهم المبرر لحياةٍ بغير تكلسات موجعة"، كان كلامك غريبًا عني وقلت لك من علمك الحكمة بين يومٍ وليلة؟ ضحكت وقلت لي إنك لا تعرف لماذا أنت مبتهجٌ، وتشعر بحنانٍ يجتاحك بقوةٍ كمهرٍ عفي، يا أخي أنت كنت طهرًا يمشي بيننا، ودائمًا تملؤني بأملٍ تعرفُ تمامًا أنه

لا يليقُ ببائسٍ مثلي، وبرغم معرفتك لكنك تمدّ حبالك بداخلي، وتقنعني أن الغد جميلٌ، وكنت أقتنع ليأتي الغد فأحتاجك للغد القادم، تركتني ورحت إلى محل البقالة، وقفت قليلًا وأنت تبحثُ في جلبابك الأبيض الزاهي، وأخرجت نقودًا بمقدار كيلو سكر، ورأيتهم وهم يخرجون وصرخت بقوةٍ، كانت ملامحهم تشرُّ غضبًا، يحملون فؤوسهم وعصيهم، وأنت تحملُ كيلو سكر، صرخت فيك لكنك كنت تبتسم، وكأنك غير متخيلٍ كيف للناس أن يقابلوا الطهر بعصيّهم، والتفوا حولك يا ابن العم، وأنتَ لم تُعرهم اهتمامًا، أنا أعلمُ لماذا لم تلتفت، كنت تُنكر عليهم مقابلتك بعصيِّهم، أنت الذي لم تضمَّ يدك على عصًا أبدًا، كنتَ تقولُ لي إن الخير لهَ ناسه والشر أيضًا له ناسه، وكنت أقبل كلامك وأرتاح له تمامًا، وأفرده في داخلي ليهدأني، آه يا ابن العم، هل كنت تعرف بموتك، كيف لا وأنت تجهزت له بالعطر، ولبست له أحسن جلابيبك، وساويت شعرك بمشطك الأسود القديم، كيف لا وقد حكيت لي عن حلمك في اليوم الفائت، قلت لي إنك رأيتَ خيالًا أبيض شفيفًا يغوص بداخلك ويمدُّ يده في يدك ورجله في رجلك، يتسرب كمحقنٍ في عروقك ويمتزج بدمك، وقلت لي إنك ارتعشت ورحت تتغير ونبتَ لك جناحان وطرت، قلت لك هل طرت وحدك وتركتني وحيدًا يا ابن العم، قلت لي لماذا لم تجئ في حلمي مع الخيال الأبيض، قلت لك ربما أكون أنا الخيال الأبيض، آه يا جهلي يا حمدي، لم أكن أعرف أنه الموت، وكيف لي أن أتخيل الموت أبيض يا ابن العم، إذن لماذا يرسمونه أسود وله محشةٌ كبيرةٌ معقوفةٌ تُشبه منجل الحصاد؟ لماذا لم يقل لي أحدٌ إنه أبيض، يومها سبيت كل الكُتَّاب الذين أقرأ لهم، كلهم يا أخي تخيلوه طاووسًا ونعامةً وشيطانًا، من منهم تخيله أبيض شفيفًا، ومن منهم تخيل أنه يغوصُ في ضحيته ويتمدد عبر شرايينها ويتكلم بلهجتها، حتى كلامك يومها كان حكيمًا ولم أعتده منك، كأنه يتكلم بلسانك ويجعلك تتقافزُ في مشيك فرحًا بك، كنت أبحث عن ظل أطرح فيه جسدي ليطفئني، وكنت أنت تجري تحت الشمس الموقدة كأنك تربيت معها في حضن أمٍ واحدةٍ، وكأنك رضعت حرارتها وأصبحت تمشي في عروقك، ورأيتك وأنت ترفع كيلو السكر أمام وجهك ورأيت ذلك الخيال يا حمدي، نعم رأيته وهو ينسلُّ من جسدك بعد أن وضعك في مرمي فؤوسِهم، كان يمسك برأسك ويثبتك، وارتفعت الفأس إلى السماء ممسوكة بزندٍ قوي، ورأسك كان مهيأً للضربة، لماذا لم تقاوم يا ابن العم، لماذا لم تُحاول الجري، حتى أعضاؤك تعاونت معهم ضدك، الفأس لامست السحب وحملت عزم صاحبها لتهبط بقوةٍ، صرخت البنت التي خرجت لتدلق بقايا الريش وصرخ الرجل الذي يبيع في محل البقالة، وانفلت كيلو السكر من يدك وحصل الهبوط، ورأيت سن الفأس يختفي في رأسك، أنت لم تصرخ يا ابن العم، تقبلت موتك كما

يليق بفارسٍ قديمٍ، تقبلته كأنك أحببت الخيال الأبيض الذي كان يسكنك، وقعَ كيسُ السكر ووقعت بجواره، ورأسك راح يبكُّ الدم المحبوس، يا إلهي كأنهم أسارى صغارٌ وجدوا فرصةً أخيرةً للتحرر، راحت خيوطُ الدم تسيلُ وتُحيط برأسك وتتلاقى مع بعضها وتتداخل لتصنع بركةً حمراء قاسيةً، والتقى دمك مع السكر المفروش حول رأسك، ورحت ترتعش برغم اللهيب، جريت ناحيتك وطارت الفؤوس وراءنا، وكان سيد هناك عرقان كأم في لحظة مخاضها، صدقني يا ابن العم حاولت الاقتراب برغم العصيّ المُشرعة في وجه السماء، وبرغم الكواريك ذات الهراوات الخشنة، لكنهم حاوطوك كغنيمة حرب، ومنعونا مؤقتًا من الاقتراب منك، حاوطوك لأن النصر تشكل في ملامحك وكنت هزيمتنا الحتمية، كان موتك دليلًا على ضعفي وهزيمتي أمام كل الأشياء مستقبلًا، وحين رجعوا إلى بيوتهم جريت ناحيتك، كنت مبتسمًا، شاخصًا بعينيْن جافَّتيْن ناحية السماء، حملت رأسك على ركبتي ورحت أسحُّ الدمع، ونظرتُ إلى الأعلى، كنت هناك يا ابن العم، وجهك مفرودٌ على صفحة السماء، تنظرُ إليَّ بعينيْن كبيرتيْن، وعلى فمك ابتسامةٌ مبهجةٌ ورائقةٌ.

طَائِرٌ أَخْضَرُ بغيْرِ جَنَاحَيْنِ

كان كل جسده ينزفُ ألمًا، لم يكن يعرف أين مكان الألم تحديدًا، فقط ألم يجيء كومضةٍ ويعودُ ليختفي ويظهرُ في مكانٍ آخر من جسده، أمه كانت تدفنُ رأسَها بين يديْها وجسمها يهتز، الشمس ينطفئ نورُها

ليعودَ بعد فترةٍ، البابُ مفتوحٌ وجمعٌ غفيرٌ من ناسٍ يقفون على الباب، بعض النسوة يربتن على رأس الأم التي انحسر المنديلُ عن شَعرها فبان أسود لامعًا، "علي" كان ينظر إليهن بدهشةٍ ولا يعرف لماذا يطبطبن عليها، أخذ يُناديها لكنها لم تسمعه كان يحب أن يسألها لماذا تبكي؟ ولماذا هذان الخطان من الدمع يسيلان حتى ذقنها ومدد كثير من ماء يجد سبيلا للخروج إلى البراح، الناس كثيرة لكنهم لا يتكلمون، من الذي أطفأ أصواتهم، يُحركون شفاههم بغير كلام و"عليٍ" أخذ يُنادي على الأم وهي لا تسمعه، السماءُ تظهر واضحةً جليةً ومن بين أعواد البوص رآه، لم تكن هذه أول مرة، لقد رآه مرتيْن من قبل، يحفظ هذه الملامح التي تشع نورًا والريشُ الأخضر الخفيف الذي يكسو لحمه، كان ينزلُ من السماء من غير أن يُحرك جناحيْه، فقط يترك نفسه للريح ويهبط باتزانٍ وقدرةٍ، من حوله جمعٌ غفيرٌ من طيور خضراء، كانت الرؤية مغبشةً نوعًا ما، لكن "علي" كان يستخلصُ الرؤية ويُراقب الطير الأخضر الذي يحط من السماء الآن، كان صغيرًا وقت أن رآه لأول مرةٍ، كان حسن يتجهز للقفز في الترعة، أخذ نفسًا عميقًا ملأ به صدره القليل ورفع يديْه إلى أعلى مقلدًا "مازينجر"، قفز حسن إلى الأعلى وثنى جسمه الصغير وأمال يديْه باتجاه الأسفل ونزل بقوةٍ في الماء، غاص حسن وانتظر الجميع طلوعه الذي تأخر، بقعة حمراء صعدت وفرشت نفسها على جسم الماء، نظر "علي" إلى فوق ورآه، كان أخضر جميلًا نورانيًّا، على رأسه تاجٌ جميلٌ ولامعٌ كما يجب أن يكون اللمعان، حسن تأخر جدًّا في الطلوع مما سبَّب قلقًا لعليّ والدم الأحمر كان سببًا لجري العيال كلها، "علي" وقف ليرى الطائر الأخضر الجميل الذي ينزل إلى الترعة، كان الطائرُ ينزل بهدوءٍ كما ينزل الآن، الصراخُ يجري ويشق الهواء الساكن، والحريم خرجن من بيوتهن يلطمن ويهلن التراب على رؤوسهن، الطائر وصل إلى سطح الترعة ومدَّ جناحين كبيرين فانشق الماء، انحسر تمامًا عن الترعة، بان جسدُ "حسن" راقدًا ينزفُ من رأسه وصخرةٌ كبيرةٌ بجواره عليها بعضٌ من مخه، أشار الطائر إلى حسن فارتفع جسمُه إلى الأعلى، أمسك الطائر الأخضر بصدغيْ "حسن" وضغط عليهما قليلا فارتعد الجسم كله دفعةً واحدةً كأنما تيار كهربي قوي يسري فيه، لحظاتٌ ورأى على أن "حسن" يطلع من "حسن" كان جسده ينشقُّ ويصبح جسديْن، جسدٌ في يد الطائر والآخر تلون بزرقةٍ مخيفةٍ وشحب تمامًا، نظر "علي" بدهشةٍ قويةٍ إلى "حسن" الذي يُمسكه الطائر، كان يضحك وهو يشير إليه، جرى على وحاول القفزَ وأخذ ينادي "حسن"، كان يضحك بقوةٍ وهو يشير بيده ويُحركها، والطائر يطلع إلى السماء، طار حسن وبقى عليٌّ يُفكر في الطائر الذي اختطف صاحبه.

الناسُ الآن يجرون في كل الاتجاهات وأم علي تهز "علي" الذي ينظر

إليها باستغرابٍ، لماذا تهزه بهذا الشكل وتلك القوة، من وراء الأم كان هناك رجلٌ يلبس بالطو أبيض، اقترب منه ورفع سماعته ووضعها على جسمه، السماعة كانت مثلجةً مما جعله يُطلق رعشةً لم يلاحظها أحدٌ، من فوق الدكتور كان الطائر الأخضر يهبط بخفةٍ ومن حوله الطيور تخفق بهدوء، يلفون في دائرة هو مركزها، يُحاوطونه كأنما هم من يحملونه ويتجهون إلى الأسفل، المرة الثانية التي رآه فيها كانت في ليلة البطل، كان المنشد يُمسك بالميكروفون ويخرج الصوت الجميل المفعم بالليونة، يطلع الصوت ويُحاوط الخلق الواقفين ويلتف حولهم ويجعلهم يميلون بغير اتزانٍ، الصوت الطالع من الشيخ كان قادرًا على رسم الفراغ بالأشكال الجميلة.

- أنا هائم في حبك يا رسول الله.
- أنت دليلي ومرشدي.

الناسُ تتطوحُ ملقيةً بخطاياها من على البدن الموجوع، ينفضون عنهم التعب والأرق ولا يفكرون إلا في صوت المنشد وهو يجرهم إلى بحرٍ من طمأنينةٍ، كان الجميع يتوق إلى التطوح حتى الصباح لولا النار التي شقت السماء كسهمٍ، الكل ترك المنشد وجرى إلى بيت "عوض الله"، الدلاء راحت تغزو البيت بالماء الضعيف أمام النار القوية والمتمكنة، وعلى وهج النيران رآه، كان ينزلُ من السماء على مهلٍ وتُحيط به حاشيته كما يجب، نفس المشهد حين مات حسن، نزلَ الموكب إلى بيت عوض الله وصعد وفي يد الطائر عوض الله وزوجته وابنته، الآن الطائر اتضحت ملامحه كان له منقارٌ جميلٌ وعينان زرقاوان ومن حوله الطيور الصغيرة ترفرف ولم يعرف "علي" لماذا شعر أن لأحد هذه الطيور شكل "حسن"، نعم كان "حسن" في صورة طائرٍ، دارت الطيورُ حول جسمه المطروح على السجادة وأفسحوا للطائر الذي كانت له رائحةٌ جميلةٌ تُشبه رائحة زهر الحناء، مدَّ الطائرُ جناحيْه وشكَّلا ما يُشبه يديْن اقتربتا من جبهة "علي" وأمسكتا بصدغيْه، لثوانٍ راحت الصور تُسابق بعضَها إلى عقله، رأى أمه وهي ترفعه بتحنانٍ وتبوسه في جبهته ورأى أباه وهو يجري خلفه والبقرة التي تلف والقادوس الخشبي معلقٌ على رقبتها، رأى حسن وعوض الله وابنته وزوجته ورأى لعبة التريك تراك التي كان يلعبها مع حسن قبل أن يموت، كأن قطارًا كبيرًا من صورٍ كان يجري في عقله، الطائر شدَّ الصدغ فأحسَّ عليٌّ كأن حبلًا ممدودًا في داخله شد الطائر أكثر فارتفعت القدم وراح الحبلُ ينسلُّ تدريجيًّا من جسمه، كان عليٌّ ينظر إلى أمه وهي تصرخُ وتصرخُ ورأى جسمه يهتز ويهتز والناس من حول الأم يطبطبون على رأسها، هو يسمعها كانت تقول:

- يا ناري عليك يا كبدي!

وكان يريدُ أن يكلمها لكنها لم تسمعه، لاحظ عليٌّ أن جسمه يبتعدُ لكنه عرف أنه يصعد، جسمُه الراقدُ على الأرض لا يتحرك والدكتور كلم الأم فتحرَّرت الصرخاتُ المكتومةُ، الأم الآن تبتعد إلى الأسفل وعليٌّ ينظرُ إلى الطيور من حوله، بالفعل كان الطيرُ يُشبه حسن، ولقد ضحك عليٌّ وهو يُمسك بمنقاره الصغير وريشه الأخضر الذي يكسو جسده بالكامل.

كَمَا يَجِبُ لِرَجُلٍ مَيِّتٍ

- الفاااااااااااتحة!

انطلق الصوتُ المفعم بالقوة يجرُّنا إلى ما حول القبر، وقفنا مبتهلين يا حسن، نفتح بوابات عيوننا للدمع، كيف لم أصدقك حين قلتَ لي إنك ستموت؟ وكيف وصلت لمعرفة وقت موتك؟ كيف تجاوزت بصرك إلى بصيرتك؟ كنتَ صاحبي الثالث الذي يموتُ خلال أسبوعين، جئتني وقلت لي إنك تعرف أن موتك قد حان، قلت لك: "الموت سيجيئنا في أي لحظةٍ يا ابن العم"، نظرت في وجهي مليًّا، كان القلقُ يبني أعشاشه على منحنيات وجهك، عيناك تبكيان يا حسن وأنا ما أحتمل دمعك يا أخي، ما قدرت لحظتها على النظر إليك والماء يتدافع ليشق طريقه ويسيل إلى الأرض، قلت لي: "هل تتخيل أن يقوم الموتُ بدفعك لتسقط أمام السيارة التي تمرق بسرعةٍ؟ وهل تتخيل أنه من الممكن أن يدخل إلى تفكيرك ويوقف نشاط عقلك وقت مجيء القطار؟ قُل لي، لماذا ترفع يديْك قدام وجهك إن كنت تُدرك أنك لن تقدر على فعل شيءٍ أمام همجية هذا الكائن؟ أليس هو وقوف العقل الذي يُصور لك أن مواجهة هذا القطار خيرٌ من الجري بعيدًا عنه؟"، وحكيت لي يا

حسن حكاية أبيك القديمة، حين كان يحفرُ ليدقّ الطلمبة التي ستشفط الماء وترمي للزرع بالحياة، كانت بديلًا عن ملء المياه من البئر البعيدة، وبديلًا عن التعب في سحب الدلاء من بطنها، كانت جدران الحفرة متينةً، ووالدك ليس تلميذًا ليمنح الجدران الأمان إلا إذا كانت تستحق، ذرات الرمل كانت متماسكةً جدًّا؛ حتى إن الفأس بالكاد تقتطع القليل من لحمها برغم عزم الضربة، ومع ذلك تربَّص له ملك الموت، كيف أقنع الجدران وقتها بالوقوع على أبيك؟ وكيف سمعت الجدران كلامه وكيف اقتنع الناس بتصديق تلك القصة التي أشاعها ملكُ الموت والتي قالت إن أباك كان يبحث عن الكنز المخبوء، النجع بكامله حفر مكان موت الأب وبجواره، وفي كل الأماكن المحتملة.

أكمل حسن كلامه وقال لي: أتعرف لماذا لم يمت أحدٌ غير أبي؟ قلتُ لا، قال: لأن الموت لا يحتاج لأحدٍ منهم، فلو احتاجك الموتُ لغرقت في شبر مياه وأنت الذي تعوم في البحر الكبير كسمكةٍ. قلتُ له: يا أخي، الموت ليس محتاجًا لمبرراتٍ فمن الممكن أن تموت وأنت تمشي في الطريق الذي تحفظه منذ طفولتك، أنت ضحكت بسخريةٍ يا حسن وقلت لي: "وأين إبداع ملك الموت في ذلك؟ أين متعته التي تسمح له بتنفيذ الأمر كل مرة بشكلٍ جديدٍ لا يجعله يمل مهنته"، كنتَ تعرفُ أنك ستموتُ وتعرفُ أن الموت يمنحكَ صك الاطمئنان المجاني ليأتيك على حين غفلة وينقض عليك انقضاضةَ صيادٍ أنهك الجري طريدته، وقبل أن تمشي وقتها قلتَ لي إن ملك الموت يا صديقي مثلنا يكره الروتين وربما أحب أن يجربَ شيئًا جديدًا أو ربما سيجرب القديم بتكنيكٍ جديدٍ.

الليلُ الآن يضربُ النهارَ في مقتلٍ، كتلة الناس تتفرقُ مثل خيوطٍ إلى سائر الاتجاهات، جلستُ حول التربة الرمليةِ التي تُشكل ملامح قبرك، الآن ستبقى وحيدًا يا صديقي، إحساسُك كان صادقًا وموتك دليلٌ جيدٌ على أن بصيرتك كانت نافذةً، أتعرفُ يا حسن الآن أحسُّ مثل إحساسك السابق، أعرف أن الموتَ يحومُ حولي، وأن شباكه سوف تطوحُ الآن في السماء وتنزلُ على مهلٍ لتشلني فلا أعرفُ سبيل الخلاص، جريت من المقابر، ربما ملك الموت سيتربصُ لي مثل أصدقائي، سيجعلني أنا ختامكم يا حسن، سأموت لأن انتصاره بات قريبًا، وسيمرُّ إلي فرحته من خلال روحي، أنا لست مثلك يا حسن، أنا قرأتُ كثيرًا وأعرفُ الدروب التي يمشي فيها الموت، أعرف حيله التي يسرقُ بها أرواح الناس بغير رضاهم، لو مرضت ومت فلن يعتبر هذا انتصارًا لأن المرض سينهك الفريسة ويجعلها تصبرُ على خروج الروح، وعلى العكس ربما سيدعو صاحب المرض على نفسه بالموت ليكونَ راحةً من تعبٍ، والأرواح التي يُنهكها المرض لا تُسبب متعةً شخصيةً لمَلك الموت وربما تجعله يحزنُ لضعفه الظاهر.

معرفتي بحلولِ موتي جعلتني أحاول فهم الطرقِ التي سأموتُ بإحداها، القطارات والسيارات باتت موضةً قديمةً وتقليديةً، ولا تصلح لفرحةٍ متخيلةٍ لملك الموت، ربما سيقفُ مثل طفلٍ فوق أعلى البناية ممسكًا بحجرٍ ثقيلٍ، ويحسب المسافة بدقةٍ بين مرور رأسي والارتفاع ويرمي حجرهَ لينزلَ فوق رأسي تمامًا، ربما سيدفعني للمشي أسفل الجدار الكهل، ومع دخولي كاملًا تحت الجدار سيدفعه بقوةٍ ليتكومَ فوقي، لكني لن أترك نفسي له، أين حق الخَصْم في منافسةٍ عادلةٍ إن كان سيقبضُ روحي في المقهى مثلا؟ أنا لا أراه لكي أعقد معه اتفاقًا يعفو فيه عني إن قدرت على هزيمته، وقفت قليلًا، سرتْ في داخلي رعشةٌ، وجدتني أقفُ، كنتُ أكلم نفسي من داخلي، كأنه دخلني وسيطر على بعضي ضد بعضي، كأنه يُحاول هزيمتي من داخلي.

- أنا موافقٌ على الاتفاق وستكون خَصْمًا وندًّا جيدًا، ولكن إن أخطأت في توقعي فستموت.

تنهدت بقوةٍ حين سرَت الرعشةُ في نفسي مرةً أخرى وعاد لي صفائي، لعله غادرني الآن يا حسن، قمت ودخلت إلى بيتنا، وجدت السلك الكهربائي يمشي ملتويًا أمام غرفتي، أمسكته جيدًا كان معزولًا بالكامل، من الممكن أن يعريه فأموت حين أمشي حافيًا أو أصب الماء لغسل الأرض، دخلت إلى المطبخ قطعت ثمرة طماطم، كنت حذرًا جدًّا خوف وقوعها من يدي، ربما انتبه لغفلتي ورمى السكين أيضًا، ومن الممكن أن يجعلها تقف مشرعة سنها إلى الأعلى، سيحسب أيضًا أن المسافة التي سأقع عليها– حين يدفعني– موافقة لرشق السكين في بطني، وربما سيجعلها في القلب إن كان رحيمًا بي، تركت الطماطم وابتعدت تمامًا عن المطبخ حيث أدوات الموت متوافرة بكثرةٍ، سلك الكهرباء الذي يمد الثلاجة بالحياة، نار البوتاجاز التي ستهب في وجهي دون سببٍ واضحٍ، السكاكين والسواطير المخبوءة في الأدراج، كانت عادتي أن أشرب شايًا قبل نومي، ربما نفخ في النار لأموت، وربما سيدسُّ شيئًا ما في الشاي، مددتُ جسدي ولم أقدر على النوم، سيأتيني ليغافلني في نومي، الأرواح تُغادرنا أثناء النوم، وربما وقف كحائطِ صدٍّ في طريقِ عودتها، لا لن أنام، بقيت سهران إلى الصباح أفكر كيف سيأتيني الموتَ، دققت النظرِ في كل الأنحاء، سيتجسد بعد قليلٍ ليُخبرني أنه تعب، وأنه لا يمل بعضًا من وسائله التقليدية، سأموتُ واقفًا أو قاعدًا أو نائمًا، سأدفن بجواركم يا حسن، سأكون رابعكم لأرسم بروحي ابتسامة النصر على شفتيه، الصبحُ جاء كبشارةٍ، فتح في نفسي فرحةً لا أعلم مصدرها، قامت أمي من النوم، أمسكتها وقلت لها إن تجلس بجواري وأنا نائم، أمي وافقت فنمت مطمئنًّا، قمت بغير أحلام يُطاردني فيها، جاءت أمي

بالطعام فأكلت على مهلٍ، أعرف أن أمي لن تساعدَه على وليدها، في الطريق كنت أحاذر من البنايات العالية والجدران التي ستتهدم إن مشيت أسفلها، ابتعدت عن السيارات بقدرٍ كافٍ، العيالُ في الطريق يُمسكون الأحجار ويرمونها على بعضهم، وقفت تمامًا فربما أمسك بحجرٍ وغيَّر اتجاه سيره إلى رأسي، ابتعدت عن جلستي المعتادة أسفل الجبل، فربما دحرج بعض الأحجار من الأعلى، وإمعانًا في الخديعة ربما كتم أصواتها لتهبط عليَّ جسدي، وقفت قليلًا حين رأيتُ الخيالات تتقافزُ حولي، قمت مسرعًا ودخلت البيت، كان السلك الكهربائي عاريًا، بالأمس كان معزولًا، سحبت السلك من مصدر الكهرباء فانطفأ نور الغرفة، الموت الآن قادم أعرف أنه حولي، لكن الاتجاهات لا تحملُ ملامحه، إنه يُلاعبني، ربما سيقع سطح بيتنا على رأسي، ربما إن خرجت سيدفع عامود الكهرباء في اتجاهي، خرجت محاذرًا وسرحتُ قليلًا لأفاجأ بالسيارة وهى تضغط مكابحها بقوةٍ، رجعت مسرعًا، لو تقدمت خطوةً واحدةً لفرمتني، كان يُحذرني، موتي اقترب جدًّا، أعلم هذا، سمعتُ صوت ارتطامٍ صادرٍ من بيتنا، صوت أمي وهى تصرخ، رأيتها وهى تُمسك قدمها بعد أن قامت بتوصيل السلك الكهربائي، نظرت من حولي فوجدتك يا حسن ومعك حامد وعزيز، كلكم تمسكون بالسكاكين، أنا صاحبكم يا حسن، قل لهم ولنفسك فربما نسيتموني، دخلت مسرعًا وأمسكتُ بسكين المطبخ، أعرف أن ملك الموت هو من سلطكم لقتلي، إنه ينشرُ الخيالات لكم من حولي، ضحكت بقوةٍ، لن أسمح له ولا لخيالاته بالانتصار على روحي، وفي غمرة الضحك مزقت الهواء بسكيني تجاه بطني، رأيت السكين وهي مغروزةٌ ومستقرةٌ بداخلي، رأيته يتجسدُ أمامي مبتسمًا، كنت مبسوطًا لانتصاري عليه، الألم غير موجودٍ، وضحكت بقوةٍ حين مدَّ يده إلى روحي، واستخلصها بضيقٍ واضحٍ.

ذَيْلٌ يَنْتَهِي بِرَأسِ سَهْمٍ

وكنتَ تقولُ إن النيلَ خُلق ليداوي جروح اللحظاتِ التي تنغل فينا، يعبثُ في دواخلنا برهافةٍ، يُخرج الهمَّ ويُصفي القلبَ تمامًا، راحةٌ غير عاديةٍ تسيلُ على ملامحك، وتفرش عليها فرحةً غامرةً، كنتُ مقتنعًا بأنَّ اسمك يدورُ في الموجاتِ القصيرةِ، وأن النيلَ يحتاجك، تمامًا كما تحتاجه، كلاكما يُحيط الآخرَ بغلالةٍ شفيفةٍ من ودٍّ، أنا يا صاحبي قلتُ بأن النيلَ غادرٌ، إنه يأخذُ أشياءً لا يستحقها، يسحب أرواح الناس برفقٍ، حكيت لك عن البحر الكبير والنيل العظيم حين ذهبا للرجل صاحب الذقن البيضاء، قالا له يا كبير، لدينا أصنافٌ من أغلب الأشياء التي على البرّ، ونحتاج للإنسان ليعمر دواخلنا، ليكثر روح المحبة فينا، ويجسد هامشًا من ود على جانب الشراسة المعهودة، أنتم بني البشر نحتاجكم نحن الكائنات الكبيرة، ونقدر لكم ملئنا بالحس وتعميرنا بتكاثركم، فرد صاحب اللحية وقال بأن الإنسان خُلق يمشي ولا يسبح إلا بالتعلم، فكيف نحرمه فطرته الموكولة إليه؟ أيها البحرُ الكبير والنيل العظيم، حياتنا تعتمدُ على بقائكم وحياتكم لا تعتمد علينا، ونحن المحتاجون لكم وليس العكس، وأنا غير قادرٍ على حمل هذا التصرف، أشكركم بهدوءٍ وأرغب في تفهمكم، راح النيل والبحر إلى حالهما، وفي الليل جهزوا قواتهم وهجموا على صاحب اللحية والناس الآمنين، وأخذوهم في غير رحمةٍ إلى حضنهم الكبير، ولا أحد يعلم - تفصيلًا- ماذا حصل لهم.. من الناسِ مَن يقول بأنهم تكيفوا على الحياة فتحورت آذانهم ونبتت لها خياشيم يستخلصون بها الهواء من الماء، وطلع لهم رمش عين زائد فلا يحتاجون لغلق العين في المياه، وراحت الأرجلُ ونبتت لهم ذيولٌ وزعانف، ومنهم من قال بأنهم يعيشون في مدينةٍ معزولةٍ عن الماء، ومكنوسةٍ من الكائنات غير الرحيمة، وقيل بأنهم تحكموا في قلب النيل، وكانوا يُعطلون تياره عن الجريان، حين يحتاجون لبنتٍ عفيةٍ، وكان " الفراعنة" يهبونهم أجمل ما لديهم من بنات، وتوالت السنون عليهم، وبدأوا يخرجون أشخاصًا منهم على البرِّ، يوهمون الناس ويدسُّون الأشعار في آذانهم فيروحون للبحر، ويمدون له كف الحياة، فيأخذها عن طيب خاطر.

كنتَ لا تعتقد في كلامي، وتتخيلني شخصًا يجحد النيل العظيم، والواهب للحياة، تجيء إلى الصخرة وتبدأ في فرد همومك، وهو يتقبلها سعيدًا شاكرًا، وبطنه الوسيع قادرٌ على حمل كل الهموم،

لم تأخذ عبرة من ابن البكري، حين راح للنيل، وقال أنزل في المياه، أنظف وسخ الجسم، وأجدد صحة البدن، كان قد استجاب للصوت النابع من العمق، وكان يقول إن اسمه واضحًا- كشمس يوليو- بين تمويجات النهر، راح الولد غير عابئ بالكلام، ونزل، والتف النيل على كامل جسمه، وانسحبت روح الولد الذي- لا نعرف لماذا– لم يُعافر مع النيل، وكثيرون آخرون، من بلادنا وغيرها، جاءتنا أنباؤهم تزف مع عمال التراحيل، وأنت قلت: "أعقد صداقة مع هذا الكائن"، كنت تحسد ورد النيل، الذي يعيش يومه بالكامل على سطحه، وتتخيل نفسك شراعًا على مركبٍ في عرض النهر، وكنتُ أخاف عليك كثيرًا، أعرف أنها النداهة النيلية، صوتك هناك وتقسم أنك تسمعه واضحًا، وأنا أصدقك، أعلم أن اختياره وقع عليك، وأن روحك– إن لم تمانع- ستروح إليه، كان يلزمك الحذر، أن تتعامل معه بصفة المعرفة، يمكنك رؤيته، وإن لم تره فلا يؤثر ذلك على تكوينك، لكنك تعاملت بصفة الحبيب، وآه يا صديقي، لم تعرف ماذا يخبئ لك القدر، ذلك اليوم لن يُمحى من ذاكرتي، كان صباحًا عاديًا مليئا بالمناقشات التي تحصل يوميًّا حول الناس واختلافهم وتشتتهم، ولماذا نكذب، ولا نقبل بكذب الآخرين؟ لماذا نسرق ونحب قطع الأيدي التي تمتد إلينا؟ لماذا نتجرد من كوننا كائناتٍ مفكرةً ؟ لماذا لا نشرب إكسير التغيير؟ وندع الظروف المظلومة معنا، وأقول إن الله خلق الناس درجاتٍ حتى في تشعبات أفكارهم، ولا بد من الشرور لنميز بها الخير، والأبيض لا يظهر جماله إلا الأسود، كنت أعرف أن كلامي لن يؤثر عليك، ولن يدير دفة دماغك، كنت متغيرًا هذا اليوم، شاحبًا كنت، ووقت أن أرى حالك هذه، أعرف أن النيل يناديك، نفس الصخرة، ونفس الأفكار المنزلقة من دماغك إلى البطن الوسيع، نفس المدن غير الموجودة على ساحات الرؤية، ونفس النظرة المتأرجحة بين الانفعالات الداخلية المتوثبة، ورأيت في عينيْك ألقًا، لحظتها عرفت.

نعم ؟ !!

قلتها بصوتٍ خفيضٍ لكني سمعته، وميَّزت حروف الكلمة المتقطعة بالغة النعومة، دماغك يهتز كشيخٍ أخذه الوجد في ضيافة حضرة.

- يا جمال!

قلتها ولاحظت الصراع الدائر بين الريح ورائحة النيل، فمرةً تأتيني ندفٌ صغيرةٌ، ومرةً تحتويني بالكامل.

أتعرف؟!!!

نظرت إليك، وحاولت الكلام علَي أستدرجك، وأحميك من عنف تياره المنساق إليك، لكنك قلت: "لحظات أحس أن النيل يحتاج للربت، والمفروض أن يلعب معنا في حارتنا، وساعات أحاولُ مدَّ يديَّ على مدى اتساعهما، ولملمته من الجانبين، وطويه ووضعه قدامي على سرير نومي"، أنا لم أكن محتاجًا لهذا الكلام، ونظرتي إليك تتغلف بانكسارٍ يسري ببطءٍ عبر ملامح الروح المستسلمة.

- نعم؟!

زادت نبرة ارتياحك للكلمة، وعلمت أنك تفرد أذنيك تستدرج الكلام من بطن هذا الكائن.

- نعم؟!

- أنا.. هو

- أنا!

- نعم!

ووقفت وعيناك مغمضتان، بدا أنك تعارِكُ شيئًا غير معلومٍ، وتُعافر مع كائناتٍ تُحاول الاستفراد بدماغك، أنا عرفت وأمسكت بك، هي اللحظة التي كنتُ أخاف منها، وكم تمنيت من اللّه ألا تجيء، النظرة الثابتة، والملامح الجامدة، نفس نظرة ابن البكري وكثيرين آخرين، يا نيل أنت تحب البنات، لماذا جمال؟!

قدمك تلمس ورد النيل ولأول مرة يلتف ويشتبك بقدمك، والموج الهادئ يرش ساقيك، أمسكت بك، لكنك دفعتني بقوةٍ لم أعهدها فيك، وقعت على الحجر، السواد يكثف وجوده ويغلف الأشياء، ينقشع بهدوءٍ والكائنات تدورُ بسرعةٍ غريبةٍ، النخيل ترك مكانه الأزلي ويتعارك مع بعضه، والريح تشيل الكائنات، وتبدلها قدام عينيَّ بقسوةٍ، ثوانٍ وهدأت الدنيا، لاحظت الدم وسني المكسورة، جلست ورحت أبحث عنك، كانت الشمس تُرسل ألوانًا لا أعهدها فيها.

وكفان عملاقان يُمسكان بها ويضعانها على رأسك، وأنت على البعيد تفرد ذراعيْك وتحضن خلقًا لا أراهم، تمنح لقلب النيل خطواتك، يعلو لبطنك، لكتفيك، أنا لم أستطع كبح الانفعال، وسني المكسورة تؤلمني، لكنى رأيتُ صخرتك إرثًا أرش عليه بذور التذكر، فتنبت أشجارًا كلها بصورك، الآن أمنحُ نظراتي للنيل، أعرف أنه

يتودد إليَّ، لكني أراه كائنًا بقرنين وذيلٍ ينتهي برأس سهم، وأنيابٍ تبرز من فمٍ لا يعرف غير الابتسامات الخبيثة، أمنيات يفرضها عليَّ لكنى لا أتعامل معها، وأفرد بيني وبينها مساحة قلق، كنت قادرًا على رد حيله التي يستحلب بها حب الناس، أنظر إليه بتكشيرةٍ واضحةٍ، وأركل مياه شاطئه إلى داخله بقوةٍ، حتى الخارج إلى الشاطئ من ورد النيل، أعيده

إلى صاحبه بغير ترددٍ، كثيرًا أجيئ إلى صخرتك، وأراقب الأولاد والبنات وهم ينزفون حكاياتهم المؤرقة، وهو يسمع الكلام ويفردُ ابتسامات ماكرة، قمت أسفًا على ما سيحصل لهم.

هاني؟!!

وقفتُ والتفتُّ علِّي أجدُ أحدًا ينادي، صوتٌ رخيمٌ وكأنه ينبعُ من أعماق جُبٍّ، ثوانٍ وعرفتُ, التفتُّ بكاملي

للنيل، وراقبت موجاته، وكأنها تعزفُ مقطوعةً من ألحانٍ جميلةٍ، قابلته بصدرٍ واسعٍ قادرٍ على رد الاحتمالات.

- هاني؟!

نعم، ميزتُ الصوت الناطق باسمي، وقفت قليلًا وأطرقتُ

برأسي، انحنيتُ والتقطت حجرًا، وبكامل عزمي ألقيته داخل النيل.

الإهداءُ

القسمُ الأول، زينب

1- **مكانٌ مُهيأ لقلقٍ قادمٍ**
2- **اسمُها زينب**
3- **صباحٌ ينتهي باكرًا**
4- **زينب**

القسمُ الثاني

أوجاعٌ

1- **بيتٌ قديمٌ تملؤه الشقوقُ**
2- **كمينٌ لاصطياد قُمامةٍ شاردةٍ**
3- **سِلالٌ خُوصيَّة**
4- **شمروش**
5- **البنتُ الأجملُ من جميلة**
6- **الوَسْوَاس**

القسمُ الثالثُ

الموتُ

1- **منطقةٌ آمنةٌ في حربٍ**
2- **طائرٌ أخضرُ بغير جناحيْن**
3- **كما يجبُ لرجلٍ ميّت**
4- **ذيلٌ ينتهي برأسِ سهمٍ**